

سُورَةُ الذَّرِّيَّاتِ

مكية وآيها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوًا ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوًا ﴾ أي الرياح التي تذرّو التراب وغيره، ذرت الرياح الشيءَ نَسْفَتَهُ وِفْرَقْتَهُ .

﴿ فَالْحَمَلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ فَالْحَمَلَتِ ﴾ أي السحب الحاملة للمطر ﴿ وَقْرًا ﴾ ثقلاً من الماء .

﴿ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ﴾ أي السفن الجارية في البحر، ويسراً صفة لمصدر محذوف، أي جرياً ذا يسر وسهولة .

﴿ فَالْمَقْسِمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ فَالْمَقْسِمَتِ أَمْرًا ﴾ أي الملائكة التي تقسم الأمور، من الأمطار،

والأرزاق وغيرها، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء، لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه تعالى، وقدرته، ثم ذكر الجواب فقال:

﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ٥ .

﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي الموعود وهو البعث، وعدُّ صادق وحقٌّ.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعٌ ﴾ ٦ .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعٌ ﴾ أي الجزاء على الأعمال، لواقع وكائن، لأن من قدر على إبداع هذه البدائع، فهو قادر على البعث والجزاء.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾ ٧ .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾ عن ابن عباس: ذات الخلق المستوي، وقيل: ذات الطرائق المحكمة، والبنيان المتقن.

﴿ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ ٨ .

﴿ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي متخالف ومتناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون، وفي شأن القرآن الكريم: تارة شعر، وأخرى سحر، وأخرى أساطير الأولين.

﴿ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ ٩ .

﴿ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ أي يصرف عن القرآن وعن الإيمان بالرسول عليه السلام من صرف، إذ لا صرف أفضع منه وأشد.

﴿ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾؟ وأصله الدعاء بالقتل، والهلاك، ثم جرى مجرى اللعن ﴿ الْخَرَّاصُونَ ﴾ الكذّابون، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: قُتِلَ هؤلاء الخراصون الأفاكون، ولعنوا على ما قالوا من الكذب والبهتان، في حق الرسول والقرآن.

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ من الجهل والضلال يغمرانهم ﴿ سَاهُونَ ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي متى يكون يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام، بل بطريق الاستعجال والاستهزاء.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴾ جواب للسؤال، أي يقع يوم هم على النار، يحرقون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار:

﴿ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ ﴾ أي عذابكم ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ بطريق الاستهزاء.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يُقادر قدرها .

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي قابلين لما أعطاهم، راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حسنٌ مرضي يُتلقى بحسن القبول ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي لأعمالهم الصالحة فلذلك نالوا ما نالوا، من الفوز العظيم .

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، وفيه مبالغة في تقليل نومهم، هجع هُجوعاً: نام بالليل .

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي هم مع قلة نومهم، وكثرة تهجدهم، يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أمضوا ليلهم باقتراف الجرائم .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي نصيب وافر قد أوجبه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً للناس ﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً، فيحرم الصدقة لتعففه .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ ﴾ (٢٠)

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ ﴾ دلالات واضحة على شؤونه تعالى، حيث إنها مدحوّة كالبساط الممهّد، وفيها سهل وجبل، وبر وبحر، وعيون متفجرة، ومعادن دفيئة، والنباتات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار، ودواب منبثة، قد رُتّب كلها ودُبّر لمنافع ساكنيها ﴿ لِلْمُتَوَقِّينَ ﴾ أي للموحّدين، الذين سلكوا الطريق السويّ، بعيون باصرة، وأفهام نافذة.

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢١)

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ آيات إذ ليس في العالم شيء إلا في الأنفس له نظير، يدل دلالته على ما انفرد به، من الهيئات النافعة، والمناظر البهية، والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكلمات المتنوعة، وحسبك بالقلب والدماغ، وما ركز فيه من العقل والفكر، وبالألسن والنطق، وما في تركيبها ولطائفها، من الآيات الدالة على حكمة مبدعها، ومدبرها، وقدرة صانعها، فتبارك الله أحسن الخالقين!! ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ أي ألا تنظرون فتبصرون قدرة الله بعين البصيرة؟

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٢)

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر، فإنه سبب الأقوات ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الثواب، لأن الجنة في السماء.

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ ﴾ (٢٣)

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَحَقُّ ﴾ أي أقسم لكم برب السماء والأرض إنما

توعدون من الرزق، والبعث، والجنة والنار، لحق ﴿مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ أي كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون، ينبغي أن لا تشكوا في حقيقته.

﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾؟ تفخيم لشأن الحديث، وتنبية على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أي المعظمين عند الله، وعند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وإكرام إبراهيم عليه السلام لهم، ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع ثانياً، وتعجيل القِرَى ثالثاً.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أي أنتم قوم منكرون، أنكرهم عليه السلام لأن أوضاعهم وأشكالهم تخالف أشكال أهل البلدة، إذ قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، خلاف ما عليه الناس، وإنما قاله في نفسه، من غير أن يشعرهم بذلك، لا أنه خاطبهم جهراً لأن فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، ولو سألهم من أول الأمر عن حقيقتهم، لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يتصدَّ لمقدمات الضيافة، قال تعالى في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ فدل على أن إنكارهم كان حاصلًا بعد تقريبه العجل لهم ليأكلوا منه.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى، من غير أن يُشعر به الضيف، حذراً من أن يكفَّ ويمنعه، راغ فلان إلى كذا مال إليه سراً ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ الفاء

فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت، بدلالة الحال عليها، أي فذبح عجلًا فشواه فجاء به .

﴿ فَرَقَبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢٧)

﴿ فَرَقَبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه لديهم، وهذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف، ولا يحوجهم إلى السعي إليه ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ منه؟ إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظْ وَبَشِّرْهُمْ بِعَلِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٢٨)

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ ﴾ أي أضر في نفسه ﴿ خِيفَةً ﴾ لتوهم أنهم جاؤوا للشر، قيل: «من لم يأكل طعامك، لا يحفظ ذمامك» أي ذمتك وكرامتك ﴿ قَالُوا لَا تَحْفَظْ ﴾ إنا رسل الله، فعرفهم وأمن منهم، وقيل: مسح جبريل عليه السلام العجل، فقام ولحق بأمه ﴿ وَبَشِّرْهُمْ ﴾ في سورة الصافات ﴿ وبشرناه ﴾ أي بواسطتهم ﴿ بِعَلِيمٍ ﴾ وهو إسحق عليه السلام عند الجمهور ﴿ عَلِيمٍ ﴾ أي يكمل علمه إذا بلغ، وفيه بشارة بحياته حتى يكون من العلماء النابغين .

﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (٢٩)

﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ ﴾ سارة رضي الله عنها لما سمعت بشارتهم، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿ فِي صَرْقٍ ﴾ أي في صيحة وضجة، من الصرير وهو شدة الصياح ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي لطمته من الحياء، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها، كما يفعله المتعجب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أنا عجوز عاقر، فكيف ألد؟ .

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٠)

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ أي قضى الله وحكم، وإنما نخبرك به عنه تعالى، لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بشؤون خلقه، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحجر.

﴿ قَالُوا فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ﴿ ٣٧ ﴾ .

﴿ قَالُوا فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ﴾ أي لإهلاك المجرمين من قوم لوط.

﴿ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ ﴾ ﴿ ٣٣ ﴾ .

﴿ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بعدما قلبنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل في سورة هود ﴿ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ ﴾ أي طين متحجّر، هو السجيل.

﴿ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿ ٣٤ ﴾ .

﴿ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي المجاوزين الحد في الفجور.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ٣٥ ﴾ .

﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما جرى على قوم لوط، بطريق الإجمال، أي: فباشروا ما أمروا به فأخرجنا ﴿ مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أي في قوم لوط ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام، وفيه بيان القدرة والاختيار، فإن البلاء والعذاب يصيب البر والفاجر، فلما ميز الله دلّ على الاختيار.

﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي غير أهل بيت ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قيل هم لوط وأهل بيته وكانوا نحو ثلاثة عشر شخصاً، وفيه إشارة إلى أن الكفر والفسق إذا فشيا، لا تنفع عبادة المؤمنين عن رفع البلاء، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيه شذمة يسرفون، فالحكم للغالب في البلاد والعباد.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، هي تلك الأحجار التي رُموا بها، وجعل عاليها سافلها ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم، دون من عداهم، من ذوي القلوب القاسية.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى آية وعبرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة، هي ما ظهر على يديه من المعجزات الواضحة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكِيهٖ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكِيهٖ﴾ أي بما يتقوى به من ملكه وعسكره، فإن الركن اسمٌ لما يُركن إليه الشيء ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق إلى الجن، وتردد في أنه حصل ذلك بسعيه وباختياره، وهذا التردد دليل الافتراء والبهتان.

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أي فأغرقناهم في البحر، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربانية، كأنه قيل: واتخذ أوليائه وأركانه وعساكره فلم ينفعوه، وأخذه الله عزَّ وجلَّ وأتباعه، وألقاهم جميعاً في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي آياتٍ بما يُلام عليه، من الكفر والعصيان.

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي وفي إهلاك عاد آيةٌ وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وُصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن لهم خيراً، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي النكباء أو الدبور.

﴿ مَا نَذَرْنَا مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ مَا نَذَرْنَا مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ هو كلُّ ما رَمَّ أي بلي وتفتت، من عظم، أو نبات، أو غير ذلك، والمعنى: ما ترك من شيء هبَّت عليه، من أنفسهم وأنعامهم، وأموالهم، إلا أهلكته، وجعلته كالهشيم البالي، فإن قيل: الجبال والصخور أتت عليهما، وما جعلتهما كالريميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصداً، وهو قوم عاد، ودورهم، ومواشيهم، وأموالهم.

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أي وجعلنا في ثمود وإهلاكهم آيةً وعبرة ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

تَمَنُّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (١) بعد عقرهم الناقة.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤).

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لسبب الإهلاك، أي فاستكبروا عن الإيمان بالله، وطاعة رسولهم، وعقروا الناقة، قيل: قال لهم «صالح» عليه السلام: تصبغ وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمّرة، واليوم الثالث مسوّدة، ثم يصبّحكم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة، صيحة العذاب، والصاعقة: النازلة من الرعد، وكل عذاب مهلك قيل: لما رأوا العلامات التي بيّنها صالح عليه السلام، عمدوا إلى قتله، فنجّاه الله من شرّهم ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها لأنها كانت نهاراً.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ (٤٥).

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ أي بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمٍ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦).

﴿وَقَوْمٍ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح وجعلنا هلاكهم عبرة ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الحدود، فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧).

(١) سورة هود، آية: ٦٥.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوة، وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بياناً للحشر ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة؛ قاله ابن عباس أو ﴿لموسعون﴾ السماء وما بينها وبين الأرض^(١).

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ﴾ (٤٨).

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها ﴿فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ﴾ أي الفارشون لها نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس من الإنسان، والحيوان، والنبات ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي نوعين، ذكراً وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا، فتعرفوا أنه خالق الكل، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر للإعادة، فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٠).

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي فاهربوا إلى الله، الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة، تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه، وقوله: ﴿فقرُّوا﴾ ينيء عن

(١) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق جل وعلا الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها - على سعتها - ما هي إلا ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم ضخامته وسعته إلا الله رب العالمين، خالق الإنسان ومبدع الأكوان، وتمعن وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ عظمة الكون وما فيه من المجرات والكواكب، لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك!!

سرعة الإهلاك ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، أي إنني لكم من جهته تعالى منذر، بين كوني منذراً، وفي أمره تعالى للرسول ﷺ، بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه، وتعليله بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعد كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥١).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي ولا تشركوا مع الله أحداً من بشر، أو صنم، أو حجر ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ﴾ أي من الإشراف بعبادة غير الله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر واضح أمري، أخوفكم عقابه تعالى، وفيه تأكيد لما قبله، لكن لا بطريق التكرير كما قيل، بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٦).

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ هذه تسليية للرسول ﷺ، أي كما كذبك قومك يا محمد، فقالوا عنك إنك ساحر أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسولهم، ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من رسل الله ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي رموهم بالسحر أو بالجنون، لجهلهم بمقام النبوة.

﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ (٥٧).

﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ﴾؟ إنكار وتعجيب من حالهم، واجتماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي هل أوصى بعضهم بعضاً بالسخرية والتكذيب ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ إضراب عن توصيهم بذلك، لأنهم لم يتلاق بعضهم مع بعض، في زمان واحد، بل حملهم على ذلك الطغيان والفجور، وهذه الآية دليل على أن كل رسول كُذِّب.

﴿ فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ .

﴿ فَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي فأعرض عن جدالهم، فقد كررت الدعوة، فلم يجيبوا عناداً ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي فلست على التولي، بعدما بذلت المجهود، بمسؤول عند الله ولا ملوم فقد بلغت الرسالة، وهذه تسلية أخرى للرسول ﷺ.

﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَذَكَرْ ﴾ أي اعمل التذكير والموعظة ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنها تزيدهم بصيرة، وقوة في اليقين.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي وما خلقت البشر والجن، إلا ليعرفوا ربهم ويعبدوه، فالمراد بالعبادة توحيد الله، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعته سبحانه وتعالى، في كل ما أمر ونهى، وقيل: المعنى إلا ليؤمروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وعن مجاهد واختاره البغوي معناه: إلا ليعرفوه، والمعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل غيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴾ .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴾ بيان لكون شأنه تعالى متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معاشهم، وتهيئة أرزاقهم، أي ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي، ولا رزقهم، بل أتفضل عليهم برزقهم، وبما يصلحهم ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خلقتهم له من عبادتي، وفي الآية تعريض بأصنام

المشركين، حيث كانوا يحضرون لها المآكل، وربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام.

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ﴾ أي المتكفل بأرزاق العباد، الذي يرزق كل من يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه تعالى غني عنه وعن العبادة ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أي شديد القوة، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، وهم كفار مكة ﴿ ذُنُوبًا ﴾ أي نصيباً وافراً من العذاب ﴿ مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أي مثل نصيب أسلافهم المجرمين من العذاب، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي لا يطلبوا مني أن أعجل لهم في المجيء به، فإنه واقع لا محالة، إن عاجلاً أو آجلاً، يقال استعجله، أي حثه على العجلة وأمره بها، وهو جواب لقولهم: ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾؟ .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالكفر، وإشعاراً بعله الحكم ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعدهم الله عز وجل به في قوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾؟ الذين فجزوا لهم العذاب الدنيوي، لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع به، لا يحفظ ويخلى المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعاً بها يخلى عنها المكان

وتذبح، والطعام الذي يتعفن يفرِّغ منه الإناء ويرمى، فكذلك الكافر إذا ظلم فحسن إخلاء العالم عنه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، و على آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

* * *

سُورَةُ الطُّورِ

مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْتِ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ .

﴿وَالطُّورِ﴾ * وَكُنْتِ مَسْطُورٍ ﴿﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ.

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ .

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ الرِّقُّ الجلدُ الذي يُكتب فيه، استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ أي الكعبة المشرفة، وعمارتها بالحُجَّاج، والعُمَّار، والمجاورين.

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ .

﴿وَأَسْقِفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أي السماء المحكمة البناء، ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (٦).

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي المملوء أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ والمراد به الجنس.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧).

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي إِنَّ العذاب لنازلٌ حتماً بالكفار، الذي أوعدوا به.

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨).

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ من مزيدة للتأكيد، أي ليس هناك من يدفعه عنهم، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها، لما أنها أمور عظام، تنبىء عن عظيم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها المقسم عليها.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩).

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ المور: الاضطراب، والتردد في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرك في تموج، أي تحرك وتضطرب اضطراباً عجيباً، وهو الزلزال الذي يكون عند قيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تزول عن وجه الأرض، فتصير هباءً منثوراً، والسبب لمورها وسيرها، قدرة الله، لأن الأرض، والسماء، والجبال، كلها كان لعمارة الدنيا، والانتفاع منها، ولا عود إلى الدنيا فلم يبق فيها نفع، وتأکید الفعل ﴿موراً﴾ و ﴿سيراً﴾ للإيدان بغرابتها، وخروجها عن الحدود المعهودة، أي موراً عجبياً، وسيراً بديعاً، لا يدرك كُنْهها، وعلماء الطبيعة يقولون: إن زلزلة الأرض، ببخار يجتمع تحت الأرض، فيحرك الجبال، وما عرفوا أسرار القدرة الإلهية في تدمير الظالمين^(١).

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم، ففيه إشارة بأمان أهل الإيمان، لأنه لما قال: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ولم يبين بأنه موقعه بمن؟ فلما قال: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ علم المخصوص به، فمن لا يكذب لا يعذب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾.

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ هذا ليس وصفاً للمكذبين، وإنما هو للذم، كما تقول: «الشیطان الرجيم» ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم.

(١) كثرة الزلازل نذيرٌ بقرب الساعة، وخراب الدنيا، كما جاء في صحيح البخاري عن

النبي ﷺ أنه قال:

«إن من أشراط الساعة - أي علاماتها - أن يتقارب الزمان، ويفشو الجهل، ويقل العلم، وتكثر الزلازل، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل، القتل»..

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٣).

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ الدَّعْوُ: الدفع العنيف، أي يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بأن تُغَلَّ أيديهم على أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار، ويدل هذا على هول النار، لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من البعيد، فيقال لهم.

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾ (١٤).

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾ في الدنيا، ومعنى التكذيب تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وعدم الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٥).

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾؟ يعني كنتم تقولون للوحي والقرآن: هذا سحر، فهل هذا العذاب الذي تذوقونه سحر أيضاً؟ ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، حيث كنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾؟ وهذا تفرغ، وتهكم بهم، ولا ظلم بعذابهم، فإن الله تعالى قال: من كفر ومات كافراً، أعذبه عذاباً أبداً، ومن آمن أثيبه أبداً، فالكافر اختار الكفر بعدما سمع، فاختار عذابه أبداً.

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

﴿أَصْلَوْهَا﴾ أي ادخلوها وقاسوا شدتها ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على عذابها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ عليه، فإنه لا محيص عنها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران سيان: الصبر وعدمه، في عدم النفع، لا يدفع العذاب، ولا يُخَفِّفه ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أي إنما تعاقبون وتعذبون بسبب أعمالكم القبيحة وكفركم بآيات الله، ولما كان الجزاء واقعاً حتماً، كان الصبر وعدمه سواء، في عدم النفع، لأن الصبر له مزية في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر، ولا عاقبة له هناك، لأنها دار الجزاء، لا دار الابتلاء.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي في آية جنات، وأي نعيم؟ على أن التنوين للتفخيم، أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع.

﴿فَكَهَيَّجْنَا بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَكَهَيَّجْنَا بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ أي ناعمين متلذذين ﴿بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وهذا يفيد زيادة قدر النعم، حيث هي من عند ربهم ﴿وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وإظهار كلمة الرب للتشريف والتكريم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا ﴿هَنِيئًا﴾ أي لا تنغيص فيه ولا كدر، وفيه إشارة إلى خلو المأكول والمشروب، عما يكون فيهما من المفساد في الدنيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه وبمقابلته.

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وأكرمناهم بزوجات حسان، من الحور العين، بيضٍ واسعات العيون، بيّن الله تعالى أسباب النعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش، ثم الزواج، فكلُّ ذلك مهياً لأهل الجنة، دون تعب.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢١)

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ أي لحقهم أولادهم وشاركوهم في الإيمان، والتنكير ﴿بِإِيمَانٍ﴾ للإشعار بأنه يكفي في الإلحاق، المتابعة في أصل الإيمان. وإن لم يكونوا كأبائهم في الأعمال الصالحة ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي في الدرجة، لما روي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه، لتقرَّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية» شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ولهذا طيَّب الله قلوب عباده بالجمع بينهم، فإن خالف دينه دين أبيه، صار له من حيث الشرع أب آخر ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ أي وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿مِّنْ عَمَلِهِمْ﴾ من ثواب عملهم ﴿مِّنْ شَيْءٍ﴾ وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل^(١) ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كلُّ امرئ مرهونٌ عند الله تعالى بعمله، فإن كان عمله صالحاً فكّه، وإلاَّ أهلكه، وقيل: المؤمن لا يكون مرهوناً بعمله، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إلاَّ أصحابَ اليمين^(٢) وهو قول مجاهد.

﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٢٢)

﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من

(١) جمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم بأنفسهم ودخولهم الجنة، وبتزويجهم بالحوور العين، وبالمؤانسة مع الإخوان في الجنة، وبالمآكل واللذائذ، والمشارب الهنيئة، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، وبالخلود الدائم في دار النعيم كما قال سبحانه: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣٨ - ٣٩.

مبادئ التنعم، وقتاً فوقتاً، ما يشتهون من فنون النعماء، من الفواكه، ولحم الطير.

﴿ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ يَنْزِعُونَ فِيهَا ﴾ أي يتعاطون فيها هم وجلساؤهم، بكمال رغبة واشتياق، كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع ﴿ كَأْسًا ﴾ أي خمراً تسمية لها باسم محلها ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في شربها، حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي ينسب إلى الإثم لو فعله، كما هو ديدن الشاربين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحكم، وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ أي ممالك مخصوصون بهم^(١) ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الحسن والصفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ مصون في الصدف لم تمسه الأيدي.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً آخر، عن

(١) أفاد التنكير في قوله سبحانه: ﴿ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ أن كل من يدخل الجنة، يجد له خدماً لم يعرفهم، وليس في الجنة من يقوم بالخدمة لنفسه، فحال أهل الجنة كحال الملوك والعظماء، يجدون من يخدمهم لكن هنا بالوظيفة والمال، وهناك بالملك والتشريف، وإذا كان الخدم كاللؤلؤ المكنون في البياض والصفاء، فكيف بحال المخدومين؟ اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة.

أحواله وأعماله، وما استحق به نيل هذه الكرامة في الجنة، تلذذاً واعترافاً بالنعمة والفضل العظيم.

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي المسؤولون، وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله تعالى، معتنين بطاعة الله، وجلين من العقابة.

﴿ فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا ﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق ﴿ وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴾ أي عذاب النار، النافذة في المسام نفوذ السموم.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ أي نعبده ونتضرع إليه، ونسأله الوقاية من نار جهنم ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ ﴾ المحسن العطوف على عباده ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا ستل أجاب، وفيه إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم، في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر، فتزداد لذة المؤمن، حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى النعيم، وحسرة الكافر حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم.

﴿ فَذَكَرْكَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ فَذَكَرْكَ ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكثرث بما يقولون ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوّة والعصمة ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ كما زعموا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِءَ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ بل يقولون هو ﴿ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِءَ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر، وصروفه، حتى يهلك ويموت فنستريح منه، ومرادهم أنهم يتربصون موته عليه الصلاة والسلام.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴾ أي أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ ﴾ أي عقولهم ﴿ بِهَذَا ﴾ أي بهذا التناقض في المقال، فإن الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون مخيل، فكيف تجتمع أوصاف هؤلاء في شخص واحد؟ والمعنى: أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ وفيه سخرية وتهكم بهم وبعقولهم ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ مجاوزون الحد في المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد، ولذلك يقولون ما يقولون.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلَهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلَهُمْ ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه، والتقول: التكلف في القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل، مع علمهم ببطلان قولهم.

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ مثل القرآن في نظمه، وحسنه، وبيانه، مثله من حيث النظم، ومن حيث المعنى ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فيما زعموا، فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله، بقضية مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والبيان.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥).

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أي أم أحدثوا من غير محدث، ومن غير رب ولا خالق؟ ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله.

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٦).

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي أم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ وهو أسلوب تهكمي لاذع، فما أحد يجروء أن يقول هما من خلقي، بل كانوا إذا سئلوا: من خلقكم؟ وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي هم غير موقنين بأن الله واحد أحد، فرد صمد، بل لا يوقنون أصلاً بشيء ما.

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ (٣٧).

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ ﴾ من النبوة والرزق حتى يقسموا النبوة على من شاؤوا، ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبروا أمر الربوبية.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٨).

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ منصوب إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ صاعدين إلى كلام

الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، إن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة، تصدق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ﴾؟ فيه تسفيه لهم، وإشعار بأن هذا رأيه، لا يُعدُّ من العقلاء، فضلاً عن أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيوب، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه ﷺ وإعراض عنهم، أي بل تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿مِّنْ مَّغْرَمٍ﴾ من التزام ماليٍّ فادح ﴿مُثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي يحكمون فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة بمكة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم كيدهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه الله عن إشراكهم، تنزه تعالى نفسه عما يقولون^(١).

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا ﴾ أي قطعة ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ لتعذيبهم ﴿ يَقُولُوا ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ قد رُكِمَ أي جُمع بعضه على بعض، ولم يصدقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب.

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي حتى يعاينوا يوم هلاكهم، يوم تصيبهم الصعقة، والمراد بها القتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل، إذ لا يصعق بها، إلا من كان حياً حينئذٍ.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي شيئاً من الإغناء، وعدم نفع كيدهم، يستدعي استعمالهم له، طمعاً في الانتفاع به، وليس ذلك إلا ما دبروه في أمره ﷺ من الكيد، الذي من جملته خروجهم لحربه يوم بدر، أما النفخة الأولى فليست مما يجري في مدافعتة الكيد والحيل، وقيل: هو يوم موتهم

(١) كررت في هذه السورة الكريمة ﴿ أم ﴾ خمس عشرة مرة، وكلها إلزامات، وليس للمخاطبين بها عنها جواب، وهي في جميع الآيات منقطعة؛ بمعنى «بل» و«الهمزة» أي بل يقولون شاعر.. بل يقولون كاهن.. إلخ ومعنى الهمزة الإنكار، فهو استفهام إنكاري، واستفهم تعالى مع علمه بهم وبما يقولون، تقيحاً عليهم، وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أتعرف هذا أم أنت جاهل؟ مع علمه بجهله، وما أبدع هذه السخرية والازدراء بعقول المشركين!!

وانتقالهم من النعيم إلى الجحيم ﴿وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ دون ما لاقوه من القتل، وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، وما وراءه وهو عذاب القبر، وعذاب الآخرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كما ذكر.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨).

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، بإمهالهم إلى اليوم الموعود، مع مقاساة الأحران ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي في حفظنا وحمایتنا بحيث نراقبك، وجمع العين ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للتعظيم والتفخيم للإيدان بغاية الاعتناء بالحفظ ﴿وَسَبِّحْ﴾ نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الجليلة التي لا تُحصى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت، قال سعيد بن جبیر وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك «سبحانك اللهم وبحمدك» وعن ابن عباس: حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أفراد لبعض الليل بالتسبيح، لما أن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل، أي صلِّ لربك في آخر

الليل، حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، للحديث الشريف: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(١). والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول ١٠/٦.

سُورَةُ النُّجُومِ

مكية وهي اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿١﴾ .

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد به إما نجم الثريا، فإنه اسم غالب له، ومنه قولهم: «إذا طلع النجم عشاء». ابتغى الراعي كساءً» أو جنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي إذا نزل، وفي القَسَمِ بذلك على نزاهته ﷺ عن شائبة الضلال والغواية، من البراعة البديعة وحسن الموقع، ما لا غاية وراءه، ومن شأن النجم أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنه قيل: أقسم بالنجم الذي يهتدى به إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ما ضلَّ محمد وما عدل عن طريق الحق، الذي هو مسلك الآخرة، وما اعتقد باطلاً قط، أي هو في غاية الهدى والرشد، وهناك فرق بين الضلال والغى، فالضلال في مقابلة الهدى، والغى في مقابلة الرشد، أي ما ضلَّ في قوله، ولا غوى في فعله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا

سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴿٢﴾ والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه ﷺ، وإيراده ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيدان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾﴾

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي ما يصدر نطقه بالقرآن، عن هواه ورأيه أصلاً.

﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

﴿إِن هُوَ﴾ أي ما الذي ينطق به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ من الله تعالى، قوله ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكدة، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجديدي ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ دليل على أنه ﷺ ما ضلَّ وما غوى، ردّاً عليهم أقوالهم الباطلة ﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي ما هو إلا وحْيٌ من عند الله، ليس بقول كاهن ولا شاعر.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي مَلَكٌ شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الوساطة بين الله ورسله، ومن قوته أنه اقتلع قري قوم لوط، ثم قلبها بهم، وصاح صيحة بشمود، فأصبحوا جاثمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي حصافة في عقله ورأيه، ومثانة في دينه، وقيل ذو منظر حسن ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى

عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أنه ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسدَّ الأرض من المغرب، وملاً الأفق، فخرَّ ﷺ مغشياً عليه، فرجع جبريل في صورة الأدميين فضمه إلى نفسه، قيل: ما رآه أحد من الأدميين غير النبي ﷺ فإنه رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، وقيل: استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ (٧)

﴿ وَهُوَ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ أي أفق الشمس، أو أفق السماء.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ (٨)

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي أراد الذنو من النبي ﷺ ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ أي استرسل من الأفق الأعلى، فدنا من النبي ﷺ حتى صار أمامه.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (٩)

﴿ فَكَانَ ﴾ أي مقدار امتداد ما بينهما ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ على تقديركم كما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ والمراد تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه، بنفي البعد الملبس، وقال الضحاك: دنا محمد من ربه. روي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله تعالى ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته^(١).

(١) أخرجه الشيخان، ورواية البخاري ٦٠٦/٨ قالت عائشة لمسروق: «من حدثك أن محمداً رأى ربّه فقد كذب، ولكن رأى جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين».

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ أي إلى عبد الله محمد ﷺ، وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كقوله ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا ﴾ ﴿ مَا أَوْحَىٰ ﴾ أي من الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى إلى عبده محمد ﷺ.

﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ ﴾ فؤاد رسول الله ﷺ ﴿ مَا رَأَىٰ ﴾ أي ما رآه ببصره، من صورة جبريل عليه السلام، أي لم يشك في أن ما رآه جبريل، لأن الأمور القدسية، تدرك أولاً بالقلب، ثم تنقل منه إلى البصر، فعلم رسول الله ﷺ أنه جبريل وليس بخيال.

﴿ أَفْتَمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَفْتَمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾؟ أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة.

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي وبالله لقد رأى جبريل في صورته مرةً أخرى في المعراج.

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة، عن يمين العرش، ثمرها كقلال هجر، وورقها كأذان الفيل، تنبع من أصلها الأنهار

التي ذكرها الله تعالى في كتابه، والمنتهى موضع الانتهاء، إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها، من مَلَكٍ أو رسول.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ ﴿١٥﴾

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المتقون، أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ﴿١٦﴾

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ الغشيانُ بمعنى التغطية والستر، أي ولقد رآه عند السدرة، وقت ما غشيها ما غشيها، مما لا يحيط به الوصفُ، كيفاً ولا كمأً، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيدان بأن استمرار الغشيان بطريق التجدد، كما يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها، ويزورونها كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عزَّ وجلَّ.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ﴿١٧﴾

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد من الأمور العجيبة المذهلة، وثبت في ذلك المقام العظيم، الذي تحار فيه العقول.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى الآيات، التي هي كبرها، حين عُرج به إلى السماء، فأرِي من عجائب الملك والملكوت، ما لا يمكن أن يوصف.

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلَتْ وَالْعَزْزَىٰ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلَتْ وَالْعَزْزَىٰ ﴾ * وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿ أي أخبروني أهذه الأصنام كل شيء؟ وهي أصنام كانت لهم «فالات» كانت لثقيف بالطائف، على صورة رجل كان يلتُ السوق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، وسميت صورته باسمه. و «العزَّى» تأنيث الأعز كانت لغطفان، وهي شجرة سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن وليد فقطعها. و«مناة» صخرة لهزيل وخزاعة، فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، سميت مناة لأن دماء المناسك تمنى عندها، أي تراق، ثم إنهم كانوا مع عبادتهم لها، يقولون: إن الملائكة، وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ف قيل لهم توبيخاً وتبكيثاً: ﴿أفأريتم﴾ إلخ والهمزة للإنكار، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله تعالى، في ملكه وملكوته، ورأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها، جعلتموها شركاء لله تعالى؟.

﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ توبيخ مبني على التوبيخ الأول، بنسبتهم إليه تعالى الإناث، مع اختيارهم لأنفسهم الذكور، أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو «الذكور»، وله تعالى النوع المذموم - في نظركم - وهو الأنثى؟.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة ﴿ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أي جائزة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، ضيزى من الضيز وهو الجور.

﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ ﴾ أي ما الأصنام إلا أسماء محضة، ليس فيها من معنى الألوهية شيء ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي جعلتموها آلهة، وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات، لا تضر ولا تنفع، وما هي إلا أسماء، خالية عن المسميات ﴿ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من برهان تتعلقون به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ألا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أي ما تشتهي أنفسهم الأثارة بالسوء ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ أي جاءهم الرسول من عند الله عزَّ وجلَّ بالبيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن الله واحد لا شريك له، وفيه تأكيد على بطلان اتباع الظن، وهوى النفس، فإن اتباعهما من أي شخص قبيح، وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أقبح.

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ انتقال من بيان أن ما هم عليه، غير مستند إلا إلى توهمهم، وهوى أنفسهم، إلى بيان أن ذلك مما لا يجدي نفعاً أصلاً، أي ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهي نفسه، حتى يطمع في شفاعة الآلهة التي لا تكاد تكون تحت الوجود.

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ أي فالملك كله لله عزَّ وجلَّ فإن أمور الآخرة والأولى لله تعالى، وله الحكم فيهما، وليس لأحد أن يتحكم في شيء منهما.

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء، في وقتٍ من الأوقات ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ ﴾ لهم في الشفاعة ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَرِضَى ﴾ ويراه أهلاً للشفاعة، من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان، فهم محرومون من الشفاعة، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنكم بحال الأصنام؟ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ يسمون كل واحد منهم ﴿ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ فإن قولهم: الملائكة بنات الله، هي تسمية الأنثى، والعرب الجاهليون رأوا تاء التأنيث في لفظ الملائكة، فقالوا إنها أولاد مؤنثة، وحكموا بأنهم بنات الله .

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا الظَّنُّ ﴾ الفاسد ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار ﴿ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ من الإغناء، فإن الحق لا يدرك إلا بالعلم، والظن لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية، ولا يقوم مقام العلم اليقيني .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي فأعرض عن عبدة الأوثان، من المشركين الضالين، عمن أعرضوا عن ذكرنا، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ راضياً بها، قاصراً نظره عليها، والمراد النهي عن دعوته إلى الهداية، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، لا تزيده الدعوة إلا عناداً، وإصراراً على الباطل.

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي غاية علمهم ورأيهم، لا يجاوزونه إلى غيره حتى تجديهم الدعوة والإرشاد، والمراد من العلم مطلق الإدراك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بالشقي، والتقي، وهو العالم بمن أضلَّ على الضلال، وبمن هو أهل للهداية، فيعطي كلاً بحسبه، وفيه وعد ووعيد.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً، وملكاً، لا لغيره أصلاً ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي ليجازي المجرمين بعقاب ما عملوا من الضلال، وبسبب ما عملوا ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ أي اهدوا ﴿ بِالْحَسَنَى ﴾ أي بالمشوبة الحسنى التي هي الجنة، وبهذا يتبين المسيء من المحسن، فمن

لا يجتنب الكبائر هو المسيء، ومن يجتنب الكبائر وما حرم الله تعالى فهو المحسن.

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

﴿ الَّذِينَ ﴾ أي هؤلاء المحسنون هم الذين ﴿ يَجْتَنِبُونَ ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره ﴿ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ أي الذنوب الكبيرة ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ أي التي قبحها واضح ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ أي إلا ما قلَّ وصَغُرَ، فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر، اللمم بفتحيتين هو الصغائر من الذنوب، التي لم يذكر الله تعالى عليها حداً، ولا عذاباً، والكبائر هي التي ذنبها عظيم، والفواحش: هي التي قبحها واضح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتنب الكبائر، على أن إخراج الصغائر عن حكم المؤاخذة، ليس لخلوها عن الذنب في نفسها، بل لسعة المغفرة الربانية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أي بأحوالكم يعلمها على التفصيل ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ ﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ إنشاءً إجمالياً ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ وقت كونكم مستترين ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة، لا يخفى عليه حال من أحوالكم، فكيف تخفى عليه أعمالكم في الدنيا؟ فهو تعالى يعلم التقى والشقي، والبرَّ والفاجر. ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوا إلى التقى والصالح على سبيل الإعجاب، فإن النفس خسيصة، إذا مدحت اغترت وتكبرت، وإذا كان الله أعلم بأحوالكم فأبي حاجة إلى تزكية النفس؟ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن، فاكتفوا بعلمه تعالى عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب، أو للرياء، وأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة بفضل الله تعالى وتوفيقه، ولم يقصد به

التمدح، لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر الله تعالى.

﴿ أَفْرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ ۞ ﴾

﴿ أَفْرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾؟ عن اتباع الحق، والثبات عليه، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه، فعيره بعض المشركين، وقالوا: أتركت دين الأشياخ؟ قال: إني خشيت عذاب الله!! فضمن له الرجل أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطاه بعض ماله، فارتدَّ وأعطى للذي عيره بعض الذي ضمن له من المال، ومنعه تمامه.

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ ۞ ﴾

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا ﴾ أي شيئاً قليلاً مما تعهد له به من المال. ﴿ وَأَكْدَى ﴾ أي قطع العطاء، من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكُدْيَةَ، أي الصلابة من الأرض، كالصخرة، وقيل: نزلت في العاص بن وائل، والأول أشهر.

﴿ أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ ﴿٣٥﴾ ۞ ﴾

﴿ أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ ﴾؟ أي أعند هذا الكافر علم بالأمور الغيبية، حتى يعلم أن صاحبه يحمل عنه العذاب؟.

﴿ أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ ۞ ﴾

﴿ أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أي حقوقه تعالى أي وفَّى وأتم وبالغ بالوفاء بما عاهد الله تعالى، وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم.

﴿الْأَنْزَرُ وَالزَّرُّ وَالْأُخْرَى﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿الْأَنْزَرُ﴾ أي لا تؤاخذ ﴿وَالزَّرُّ وَالْأُخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا تُعاقب بجرم فعله أحد غيرها، إلا إذا كان أمراً به .

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، وأما شفاة الأنبياء والملائكة، ودعاء الأحياء للأموات، وصدقتهم عنهم، وغير ذلك من الأمور النافعة للإنسان، مع أنها ليست من عمله قطعاً، فهي ثمرة الإيمان والصلاح، وهذا فضل من الله على المؤمن، ويشهد له ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمني تُوفيت، أينفعها إن تصدقتُ عنها؟ قال: «نعم»^(١) وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت، فلكون الناوي له كالنائب عنه .

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه، وفيه بشارة للمؤمنين، لأنهم يرون أعمالهم الصالحة، فيفرحون، وعقاب للكافرين، لأنهم يرون ويحزنون، فإن قيل: العملُ كيف يرى؟ قيل: على صورة جميلة أو قبيحة، أو مجاز عن الثواب والعقاب .

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ ﴿٤١﴾ .

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٨٩/٥ ورواه مسلم رقم ١٦٣٠ ولفظه عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ «إن أمني مات ولم يوص، أينفعه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم» .

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي يجزى الإنسان سعيه ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ أي الأتم والأكمل.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ أي انتهاء الخلق، ورجوعهم إليه تعالى، لا إلى غيره، كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ والمخاطب بهذا إمَّا عامٌّ، وتقديره: وإلى ربك أيها السامع، فعلى هذا فهو تهديد للمسيء، وحث للمحسن، وإما الرسول ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية له ﷺ فالمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى والرجوع، فيجازيك على صبرك أحسن الجزاء.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى .
وقال مجاهد: أضحك المؤمنين، وأبكى الكافرين في العقبى .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره، فإن أثر القاتل نقض البنية، وإنما يحصل الموت عنده، بفعل الله تعالى على العادة، وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى ﴿٤٦﴾ .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى ﴿٤٥﴾ أي تُدْفَق في الرحم، وفيه تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة متناسبة الأجزاء، يخلق الله تعالى

منها أعضاء مختلفة، وطباعاً متخالفة، وخلق الذكر والأنثى أعجب، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء، وإنما هو بقدرة الله، لا بفعل الطبيعة.

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْآخِرَى ﴾ (٤٧)

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْآخِرَى ﴾ أي الإحياء بعد الموت، وفاءً بوعدته، وهو قول أكثر المفسرين، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ (٤٨)

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ أي أغنى الإنسان ثم رضاه بما أعطاه، قال ابن عباس: أعطى فأرضى. وقيل المعنى: أغنى من شاء، وأفقر من شاء^(١)، وفيه إشارة إلى فساد قول بعض الناس، من أن الغنى بكسب الإنسان وجهده، أو ببخته وطالعه.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴾ (٤٩)

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحرِّ، وكانت خزاعة تعبدها، سنَّ لهم عبادتها أبو كبشة رجلٌ من أشرفهم.

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ (٥٠)

(١) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يسيطر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع على من يشاء، ويضيّق على من يشاء. أقول: ولعل هذا القول أرجح، للتناسق البديع بين الآيات ﴿أضحك وأبكى﴾ و ﴿أمات وأحيا﴾ فيكون معنى ﴿أغنى وأقنى﴾ أي أغنى وأفقر، فيتم التناسق بين الآيات، والله أعلم.

﴿وَأَنذَرْتُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، وعاد الأخرى عاد إرم.

﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ أي ما أبقى أحداً من الفريقين، بل أهلكهم ودمّرهم عن بكرة أبيهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي أهلكهم من قبل إهلاك عادٍ وتمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أي أظلم من عاد وتمود، لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه، وينفرون الناس عنه، ثم عتوهم على الله تعالى بالمعصية والطغيان، وما أترّ فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ﴾ هي قرى قوم لوط، ائتفتت بأهلها أي انقلبت بهم ﴿أَهْوَى﴾ أي أسقطها إلى الأرض، بعد أن رفعها إلى السماء، وقيل: كانت عماراتهم مرتفعة، فأهواها بالزلزلة.

﴿فَفَشَنَّا مَا غَشَى﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿فَفَشَنَّا مَا غَشَى﴾ من فنون العذاب، وفيه من التهويل ما لا غاية وراءه.

﴿فِي آيَاءِ آلاءِ رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نَتَمَارَى﴾ أي تُشكِّك، والخطاب لكل إنسان مشرك، أي فبأي نعم الله، الدالة على وحدانيته وقدرته، تشكك أيها الإنسان وتكذب؟، وإسناد تمارى إلى الواحد، باعتبار تعدده، بحسب تعدد متعلقه، وتسمية الأمور المعدودة آلاء، مع أن بعضها نِقَم، لما أنها أيضاً نِعَم، من حيث إنها نصرَةٌ للأنبياء، والمؤمنين، وفيها عظات وعبر للمعتبرين.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي ما ذكر من أخبار المهلكين، إنذار من قبيل الإنذارات المتقدمة، التي سمعتم عاقبتها، وهذا الرسول منذر من المنذرين الأولين علمتم به.

﴿أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ﴾.

﴿أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ﴾ أي دنت الساعة، الموصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وقعت الواقعة﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي ليس لها نفس قادرة على كشفها وردّها إذا غشيت الخلق.

﴿أَفِئْتِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ﴾.

﴿أَفِئْتِنَ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن العظيم ﴿تَعَجُّبُونَ﴾ إنكاراً وعناداً!!.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾.

﴿وَتَضَحَّكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعد شيء من ذلك؟ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرّطتم من شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ أي لاهون غافلون، أو مستكبرون، من سَمَدَ البعيرُ إذا رفع رأسه، قال الراغب: السامدُ: اللاهِي الرافع رأسه، والسمود: اللهو. قيل: كان المشركون إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن استماعه.

﴿فَاتَّجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿فَاتَّجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا﴾ أي اسجدوا لله العظيم الجليل الذي خلقكم، وخصوه بالعبادة بدل أن تسخروا وتضحكوا، فأمامكم أهوال وشدائد، لا ينجي منها إلا الإيمان، والخضوع والخشوع للرحمن!! .
والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

* * *

obeikandi.com

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مكية وهي خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١).

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قربت القيامة، التي كل يوم يزداد قربها
﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي انشق نصفين، وعن ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي
القمر (١).

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة، ويردّه
قوله تعالى:

﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٢).

(١) قال ابن الجوزي: إن قوماً شذوا فقالوا: سينشق يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا
يقاوم الإجماع، ولأن قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّ﴾ لفظ ماضٍ، وحمله على المستقبل
يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ دل
على أنه قد حدث ذلك. ١هـ من زاد المسير ٨/٨٨.

والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه «أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين»^(١) ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، وأنه حصل في الليل، ومعظم الناس نيام وغافلون، ومما هو المشاهد أن كسوف القمر وغيره يحدث في السماء، ولا يتحدث به إلا بعض الناس، ولا علم عند غيرهم بذلك، والمؤرخون تركوه لأنهم قالوا إنه مثل خسوف القمر، والقرآن أثبت وأدل دليل، وأقوى مثبت له، وإمكانه لا يُشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق، فيجب اعتقاد وقوعه.

﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ أي وإن ير المشركون معجزة واضحة ساطعة، دالة على صدق الرسول، يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا سحر مستمر، مطرد دائم، يأتي به على مر الزمان، وقولهم ﴿مستمر﴾ يدل على أنهم رأوا قبله آيات آخر مترادفة، ومعجزات متتابعة، حتى قالوا ذلك.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾

﴿وَكَذَّبُوا﴾ أي الرسول ﷺ، وما عينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات، كما كذبوا بانشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زينها الشيطان لهم، وقالوا سحر أعيننا، والقمر بحاله^(٢)، وذكرهم بلفظ

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٨٢/٧ ومسلم رقم ٢١٥٩ وتتمة الحديث «حتى رأوا حراء بينهما».

(٢) طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جليلة، تدل على صدق نبوته، وخصّصوا بالذكر أن يشقّ لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق على أن يؤمنوا برسالته، ويتبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فدعا رسول الله ﷺ ربه فأجاب الله دعاءه وانشق القمر فلقنتين وكانت ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون فيرونه منشقاً إلى نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيعان، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: =

الماضي، للإشعار بأنها من عاداتهم القديمة، من ردِّ الحقِّ بعد الظهور ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور مستقر، أي منتهٍ إلى غاية، يستقرُّ عليها لا محالة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرُّ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي في القرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي أنباء القرون الخالية، الذين كذبوا رسلهم وعاقبتهم الوحيمة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم وزاجر عن التمادي في الباطل، وهو أنباء المهلكين بسبب التكذيب.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ﴾.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن العظيم، حكمة بالغة من ربِّ العزة والجلال ﴿فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ﴾؟ أي فماذا تنفع الإنذارات، والزواجر، عن قوم أصمُّوا آذانهم عن سماع كلام الله، وهو الحكمة البالغة؟ فالمراد بالأنذر الإنذارات، والتخويف بالمواعيد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم حينئذ، فمن ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح، يعرض عنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ أي يوم يدعو

= سحر محمد أعيننا!! فقال أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فإن رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، وإلا فهو سحر، فلما قدم المسافرون سألوهم فقالوا: رأينا نشق في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك، فقال أبو جهل اللعين والمشركون معه: سحر محمد الناس جميعاً، وهذا سحر مستمر أي دائم، فأنزل الله: ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾.

إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ تُكْرَهُ﴾ أي منكر، فطيع، تنكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة.

﴿حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ خشوعُ الأبصار: سكونها على حال لا ينقلب يمنة ويسرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُ الْيَهُودَ طَرَفُهُمْ﴾ وهو كناية عن الذلة والهوان، لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز، تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة، والجراد مثلٌ في الكثرة.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي حيارى، فزعين، مسرعين، مادي أعناقهم ناظرين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ الذي يدعوهم إلى الحشر، أي إلى صوت الداعي ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي صعب شديد، وفي إسناد القول إلى الكفار، تلويحٌ بأن المؤمنين ليسوا كذلك، بل هو سهل يسير عليهم كقوله تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾ .

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي فعل التكذيب قبل تكذيب قومك، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي كذبوا عبدنا نوحاً شيخ الأنبياء عليهم السلام ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون ﴿وَازْدَجَرَ﴾ أي وزجر عن التبليغ، بأنواع الأذية، من زجرت العبد إذا نهرتة عن فعل شيء، ولم يكتفوا بذلك بل توعدوه بالقتل، رمياً بالحجارة فقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ .

﴿ فِدَعَارِيهِۦٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرَ ۖ ﴾ (١٥)

﴿ فِدَعَارِيهِۦٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرَ ﴾ أي فانتقم لي منهم، وذلك بعد يأسه منه، وسرعان ما استجيب الدعاء، قال تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۖ ﴾ (١٦)

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبٌ بقوةٍ وغزارة، وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وشدة انصبابها، قيل: لم ينقطع المطر أربعين يوماً.

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ۖ ﴾ (١٧)

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي جعلنا الأرض كلها، كأنها عيونٌ منفجرة ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أي ماء السماء، وماء الأرض، والإفراد لتحقيق أن التقاء المائين، لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الاختلاط والاتحاد ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴾ أي على حالٍ قد قدرها الله من الأزل، وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله بمطلوبهم، بالماء الذي به حياة البشر.

﴿ وَحَمَلْتُهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرٍ ۖ ﴾ (١٨)

﴿ وَحَمَلْتُهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَجِّ ﴾ أي أخشاب عريضة ﴿ وَدُسِّرٍ ﴾ ومسامير، جمع دسار، والدسُّرُ: هو الدفع الشديد بقهر.

﴿ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ۖ ﴾ (١٩)

﴿ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا، أي محفوظة بحفظنا ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ أي كُفر به، فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام، لأنه كان نعمة كفروها.

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا ﴾ أي السفينة أو حادثة الطوفان ﴿ آيَةً ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها، وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجودي، دهرأ طويلاً ﴿ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ أي هل من معتبر بتلك الآية الجديرة بالاعتبار؟ وأصله مذتكر، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿ فهل من مذكر ﴾، فردّها عليّ يقول ﴿ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ (١).

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾؟ استفهام تعظيم ووعيد، أي كان على كيفية هائلة، لا يحيط بها الوصف، والنُّذْرُ: أي الإنذارات التي فيها تخويف.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ جملة قسمة، وردت في أواخر القصص الأربع، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ ﴾؟ وتنبهاً على أن كل قصة منها، مستقلة بإيجاب التذکر والتدبر، كافية في الازدجار، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لِقومك، بأن أنزلناه على لغتهم، وشحناه بأنواع المواعظ والعبر، وصرّفنا فيه من الوعيد والوعد، للتذکر والاعتاظ ﴿ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ إنكار ونفي للمتعمّظ على أبلغ وجه، أي فهل من معتبر ومتعمّظ بما فيه من العبر والمواعظ؟.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦١٨/٨.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي هود عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له،
دوماً للاختصار، ومسارة إلى ما فيه بيان الازدجار، من العذاب الأليم،
وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ لتوجيه قلوب السامعين، نحو
الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره لتحويله وتعظيمه، كأنه قيل: كذبت
عاد فهل سمعتم كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ ﴾ أي أرسلنا إليهم ريحاً باردة،
شديدة الصوت، في يوم مشؤوم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي استمرَّ شؤمه، أو مستمر
عليهم إلى أن أهلكهم الله .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ أي تقلعهم عن أماكنهم، روي أنهم دخلوا الشُّعَابَ،
والحفرة، فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ أي
المنقطع عن مغارسه، وقوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ تهويلٌ لهما وتعجيب من أمرهما، أي ألم
يكن هائلاً فظيماً؟ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر بزواجر

القرآن؟ وفائدة التكرار، أن يجدد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين، ادكاراً واتعاضاً، وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك، وهذا حكمة التكرار في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ وقوله: ﴿وَيُلِّمُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك تكرار القصص في أنفسها، لتكون العبرة حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسيّة في كل أوان.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو بالرسول عليهم السلام، فإن تكذيب أحدهم تكذيب للجميع، لاتفاقهم على أصول الشرائع.

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذْ لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ أي واحداً من جنسنا من آحاد الناس، لا من أشرافهم ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي على تقدير اتباعنا له ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ عن الصواب ﴿وَسُعْرٍ﴾ أي جنون، فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

﴿أَلْفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿أَلْفَى الذِّكْرُ﴾ أي الوحي ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وفيما من هو أحق منه بذلك؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾ أي بطر متكبر، حمله بطره على التعظم علينا بما ادعاه، يقال: أشِرَ أشراً، أي بَطِرَ وتكَبَّرَ.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام، وعداً له، ووعيداً لقومه، والمراد بالغد وقت نزول العذاب،

والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده، أي سيعلمون البتة عن قريب،
من الكذاب الأشرف؟

﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَرِّ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أي مخرجوها من الصخرة حسبما
سألوا، امتحاناً لهم، فانتظرهم وتبصّر ما يصنعون؟ ﴿ وَأَصْطَرِّ ﴾ على أذيتهم
فإن الله ناصرك عليهم.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي مقسوم لها يوم، ولهم يوم، و «بينهم»
لتغليب العقلاء ﴿ كُلُّ شَرْبٍ مُّحَضَّرٌ ﴾ أي يحضره صاحبه في نوبته.

﴿ فَادَّأُوا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ فَادَّأُوا ﴾ نداء المستغيث ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ هو «قدار بن سالف» كان
أشجعهم ﴿ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث له،
فأحدث العقر بالناقة، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ
الْحُخْطَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي صيحة جبريل
﴿ فَكَانُوا ﴾ فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ الْحُخْطَرِ ﴾ أي كالشجر اليابس، الذي يتخذه من
يعمل الحظيرة، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته
في الشتاء.

﴿ وَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ وَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أي هل من معتبر ومتعظ؟

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ﴾ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آءَالَ لُوطٍ بَجَّيْنَهُمْ
بِسِحْرٍ ﴿٣٤﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ﴾ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴿ أي ريحاً تحصبهم، أي ترميهم بالحصباء وهي الحجارة ﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ بَجَّيْنَهُمْ بِسِحْرٍ ﴿ وهو آخر الليل وقت السحر .

﴿ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرَىٰ مِنْ شَكْرٍ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ أي إنعاماً منا عليه، فكان الإنجاء فضلاً منه تعالى ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ تَجْرَىٰ مِنْ شَكْرٍ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة، وذلك الإنجاء كان فضلاً، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً، والعضو الفاسد يُقطع .

﴿ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ ﴾ فكذبوا بالإنذار والوعيد متشككين فيه .

﴿ وَقَدَّرَ وُدُّهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ وَقَدَّرَ وُدُّهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ أي قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أعمينا أعينهم فجعلناهم لا يبصرون، روي أنهم لما عالجوا باب لوط ليدخلوا، قالت الملائكة: خلّهم يدخلوا إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا،

فصفتهم جبريل عليه السلام صفقة، فتركهم يترددون، ولا يهتدون إلى الباب عمياناً ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي وإنذاري الذي كنتم به تستهزئون.

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهِمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهِمْ بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ حكاية لما قيل لهم، من جهة الله تعالى، تشديداً للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي هل من متعظٍ ومعتبرٍ؟ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي، لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لعظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، والاكْتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك، أي وبالله لقد جاءتهم الإنذارات.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْنَدٍ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي لا يُغالب ﴿مُقْنَدٍ﴾ لا يعجزه شيء .

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٤٣).

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ ﴾؟ إكفاركم يا معشر العرب خير من أولئك قوة، وشدة وعدة ومكانة؟ والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم، مع ظهور خيرتهم منكم، فيما ذكر، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم أسوأ حالاً منهم، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾؟ انتقال من التبكيث إلى توبيخ آخر، أي أم لكم براءة وأمن من العذاب في الكتب السماوية المنزلة ولذلك تصرون على ما أنتم عليه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴾ (٤٤).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴾؟ تبكيث آخر، أي بل يقولون نحن جمع كبير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد وصحبه؟.

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٥).

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ ﴾ رد وإبطال لذلك أي سيهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار، والتوحيد لإرادة الجنس، وهو من دلائل النبوة، وقد وقع ذلك يوم بدر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبة يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً، ووُثب في الدرع وهو يقول: ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (١).

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٤٦).

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٦١٩/٨.

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه، يعني: إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة، فإتمامها بالعذاب الدائم ﴿ وَالسَّاعَةُ آذَى وَأَمْرٌ ﴾ أي في أقصى غاية من الداهية والمرارة.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ (٤٧).

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ في هلاك ونيران مسعرة.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٤٨).

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يجزؤون ﴿ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي حر النار وألمها، و «سقر» علمٌ لجهنم، واسم من أسمائها.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٤٩).

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي ملتبساً بقدر معين، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين، أو مقدر مكتوب في اللوح قبل وقوعه. عن عبد الله بن عمر وابن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق كلها، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» (١).

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (٥٠).

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أي كلمة واحدة سريعة التكوين، وهي قوله

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٣ في القدر، والترمذي رقم ٢١٥٧ في القدر أيضاً.

تعالى: كن، فإذا أراد شيئاً قال له: «كن» فهنالك شيئان: الإرادة، والقول، والإرادة قَدْرٌ، والقول قضاء ﴿كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾ في اليسر والسرعة.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباههم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾ متعظ يتعظ بما صنع بهم.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ في ديوان الحفظه.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ من الأعمال مسطورٌ فيها؛ نظيره قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (١) ؟

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في حدائق وبساتين وأنهار جارية.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ﴾ أي مقربين

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

عنده، عند ملك لا يُقادر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه ما أعظم شأنه، والعندية عندية منزلة وكرامة لا مسافة ومماسة، والله أعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

* * *

obeikandi.com

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مكية وآياتها ست وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿الرَّحْمَنُ﴾ لما عدّد في السورة السابقة، ما نزل بالأمم السالفة من النقم، عدّد في هذه السورة الكريمة، ما أفاض على كافة الأنام، من فنون نعمه الدينية، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب الشكر، وبدأ بتعليم القرآن، فقال تقدست أسماؤه:

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لأنه أعظم النعم شأنًا، وأرفعه مكانة، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية، والدينية، جمع الله فيه العلوم والمعارف، ويبيّن فيه الهدى والضلال، وشرفه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضلها وإمامها، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن، للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على أصالته، وجلالة قدره.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الآخرين عن العاطف، لورودها على منهاج التعديد، كما

تقول: زيد أعناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه؟ والبيان هو التعبير عما في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه، بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً، إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن.

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ ﴾

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ ﴾ أي يجريان بحساب مقدر، في بروجها ومنازلها، بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنون والحساب.

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾

﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ أي النبات الذي ينجم، أي يطلع من الأرض ولا ساق له، وقيل: نجوم السماء، والأول أظهر ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ الذي له ساق ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ أي ينقادان له تعالى فيما يريد بها طبعاً، انقياد الساجدين من المكلفين طوعاً.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ أي خلقها مرفوعة، محلاً ورتبة، حيث جعلها منشأ أحكامه، ومنزل أوامره، ومحل ملائكته، فنبه بذلك على كبرياء شأنه، وعظم ملكه وسلطانه ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ أي شرع العدل، وأمر به بأن يُوفَى لكل ذي حق حقه، والمراد به الميزان الذي يعرف به مقادير الأشياء، من وزن ومكيال ونحوهما، فالمعنى: خلقه موضوعاً على الأرض، حيث علق به أحكام عبادته، من التسوية والتعديل، في أخذهم وإعطائهم، فالميزان نعمة، وعدم ظهور نعمته، لكثرتة وسهولة الوصول إليه، كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلها إلا عند فقدهما.

﴿ أَلَا تَطْفَوُا فِي الْمِيزَانِ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ أَلَا تَطْفَوُا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي لثلا تطفوا فيه، ولا تجاوزوا الإنصاف وإنما قال: ﴿ في الميزان ﴾ ولم يقل في الوزن، ليشمل الأخذ والإعطاء، ولولا التساوي في الحقوق لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي قوموا وزنكم بالعدل والإنصاف ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تنقصوه، والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات، كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة، والثاني بمعنى المصدر، أي لا تطفوا في الوزن، والثالث للمفعول، أي لا تنقصوا الموزون؛ كثر لفظ الميزان، تشديداً للتسوية به، وتأكيذاً للأمر باستعماله عدلاً.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْبَاءِ ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ أي خفصها وبسطها ﴿ لِلْأَنْبَاءِ ﴾ أي للخلق ليستقروا عليها، وينتفعوا بما فيها من خيرات، بالزراعة، والبناء وإخراج المعادن.

﴿ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ فِيهَا فَنَكِهَةٌ ﴾ أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به، من النعم التي لا تحصى ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ هي أوعية الثمر جمع كِمّ بكسر الكاف والكِمُّ وعاءُ الطلع، وغطاء النور، والجمع أكمام، ذكر تعالى النخل، لأنها أعظمها وأكثرها نفعاً، فهو غذاء كامل.

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾

﴿ وَالْحَبُّ ﴾ هو ما يُتَغَذَى به، كالحنطة، والشعير ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبثن ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ هو الريحان المعروف، ذو الرائحة الطيبة، والمراد به كل مشموم طيب الريح، كالورد، والياسمين، والفلفل، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة الزكية^(١).

﴿ فَإِيَّاءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾

﴿ فَإِيَّاءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ وسينطق به قوله تعالى: ﴿ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ والفاء لترتيب الإنكار، على ما فُضِّل من فنون النعماء، الموجبة للإيمان والشكر، والتعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن المالكية، والتربية لتأكيد النكير، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه، كالنعم الدنيوية، أي فإذا كان الأمر كما فُضِّل، فبأي فردٍ من أفراد آلاء مالِككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق، شاهدٌ بالصدق؟ كُثِّرَت هذه الآية في هذه السورة، في إحدى وثلاثين موضعاً، تقريراً للنعمة وتنبهاً على

(١) ذكر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنواع النعم التي خلقها لعباده، فذكر الفاكهة أولاً، ونكَّر لفظها ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ لأن الانتفاع بها نفسها كالفتاح، والرمان، والعنب، والكمثرى إلخ، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسَعَف، وجريد، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان، من بُرٍّ، وشعير، وكل ما له سنبل، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم، ليجمع بين اللذة بالغذاء، واللذة بالروائح الطيبة، فسبحان من أنزل القرآن بأفصح بيان!!

وجوب شكر المنعم، والاعتراف له بالفضل والإحسان، ثم فصل هذه النعم الجليلة، وبدأ بخلق الإنسان؛ فقال:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ ﴾ الصلصال: الطين اليابس، الذي له صلصلة، وهو الصوت منه إذا نقر ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام في أطوار وأدوار، من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً، ولا اختلاف بين الآيات، لاتفاقهن معنى، فهي مراحل وأطوار.

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ أي الجن، أو أبا الجن إبليس ﴿ مِنْ مَّارِجٍ ﴾ من لهب صافٍ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ بيان للمارج، فإنه في الأصل للمضطرب، من مرج إذا اضطرب.

﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله ممّا أفاض عليكم من سوابغ النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس؟.

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي الذي فعل ما ذكر من الأفعال البديعة، ربّ مشرقَي الصيفِ، والشتاءِ، ومغربيهما.

﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مما في ذلك من فوائد لا تحصى، من اعتدال الهواء، واختلاف الفصول، وحدث ما يناسب كل فصل في وقته، وغير ذلك.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩).

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يتجاوران.

﴿يَنْهَمَا بَرِّحٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠).

﴿يَنْهَمَا بَرِّحٌ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من الأرض، يعني أن الماءين، من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً، ثم إنهما بقيا في مكانين متميزين، فذلك برهان القدرة، على أن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال، بل يبقيان زماناً، كالماء المسخن إذا غمس في ماء بارد، إن لم يمكث فيه زماناً لا يمتزج بالبارد، لكن إذا زاد مجاورتها فلا بد من الامتزاج ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يبغى أحدهما على الآخر، بالممازجة وإبطال الخاصية.

﴿فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢١).

﴿فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ليس منهما شيء يقبل التكذيب.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢٢).

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ: الدرُّ، والمرجان: الخرزُ الأحمر، لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ساعً أن يقال يخرجان منهما وظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من بعض الناس، ممن لا يوثق بقوله

أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح، والصواب أنه يخرج من بعضها كبعض أنهار الهند ثبت ذلك قطعاً.

﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ آءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ آءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ * ﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ ﴿﴾ أي السفن الجارية المرفوعات الشراع، أو المصنوعات، اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ كالجبال الشاهقة، جمع عَلم وهو الجبل الطويل.

﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ آءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ آءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ؟ ﴾ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى^(١).

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ أي على الأرض من الحيوانات، أو من الثقليين هالك لا محالة.

﴿ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ أي ذاته عز وجل، والوجه يستعمل في العرف

(١) في الآية إرشاد وتنبية إلى أن الفلك - أي السفن - في البحر، لا يملك أمرها في الحقيقة أحد، وكل الخلق مؤمنهم وكافرهم يعترف بالعجز والضعف، وينتظر رحمة الله عز وجل، فأحوالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله، وقد كانوا يقولون: لك الفلكُ ولك المُلْكُ، كما قال سبحانه عنهم: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ ثم هم بعد ذلك ينسون نعمة الله!!.

لحقيقة الإنسان ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي ذو الاستغناء المطلق، والفضل التام، وهذه من عظام صفته تعالى، كما رُوي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلِطُّوا بِيَاذَا الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ»^(١) ومعنى أَلِطُّوا، أي الزموا وأكثروا من هذا الدعاء، وفي وصفه سبحانه بعد ذكر فناء الخلق، وبقائه تعالى، إيدان بأنه يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه.

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ فإحياؤهم بالحياة الأبدية، والإثابة بالنعيم السرمدى، أجلُّ النعم، وأعظم الآلاء، قال يحيى بن معاذ: حبَّذا الموتُ، فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه، في ذاتهم، وموجوداتهم وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً، بلسان المقال، أو بلسان الحال، فإنهم كافة لو انقطع ما بينهم، وبين العناية الإلهية من العلاقة، لم يشمُّوا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آن مستمرّون على الاستدعاء والسؤال، والمراد من السؤال ما يدل على الحاجة، نطقاً كان أو غيره ﴿كُلُّ يَوْمٍ﴾ أي في كل وقت من الأوقات ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا، فإنه تعالى لا يزال ينشئ أشخاصاً ويفني آخرين، ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكَم

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٣. والحاكم في المستدرک ١/٤٩٨ وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

والمصالح، روي أنه ﷺ تلاها فقبل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين^(١). وفيه ردٌّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت.

﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٥﴾﴾

﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة، عند انتهاء شؤون الخلق، فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل، وقيل: هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه: سأفرغ لك، أي سأتجرد للإيقاع بك، والمراد التوفر على النكاية فيه، والانتقام منه ﴿أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾ هما الإنس والجان لثقلهما على الأرض.

﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾؟ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقون يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب والعذاب.

﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا وَلَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ هما الثقلان، خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة، فخوطبوا بما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٢٩٣/٤.

ينبىء عن ذلك، لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كُلفوه ﴿إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ أي إن قدرتم ﴿أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي، ومن أقطار السماوات والأرض ﴿فَأَنْفُذُوا﴾ منها، وخلصوا أنفسكم من عقابي ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ أي لا تقدرتون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل بعيد، وهذا الخطاب الظاهر أنه في الآخرة، روي أن الملائكة تحيط بجميع الخلائق، فإذا رآهم الإنس والجن هربوا، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ تقدم تفسيره .

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ﴾ هو لهب خالص، وقيل: المختلط بالدخان ﴿مِّن نَّارٍ﴾ والتنكير للتفخيم ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي دخان، وقيل صُفْرٌ مذاب يصبُّ على رؤوسهم، ويحتمل أن يكون للاختصاص، فالنار للإنس، والنحاس للجن ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ أي لا تمتنعان، ولا يكون لهم ناصر منه.

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ ؟ فإن بيان العاقبة لطف ونعمة، والانتقام من الكفار من عدد الآلاء .

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي انصدعت، وانفكَّ بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كدهن

الزيت، كما قال تعالى: ﴿كالمهل﴾ وهو عكر الزيت، وجواب إذا محذوف، أي يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

﴿فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ مع عظم شأنها.

﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿فَيَوْمِذٍ﴾ أي يوم تنشق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم، وذلك حينما يخرجون من قبورهم، ويحشرون إلى الموقف على اختلاف مراتبهم، وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة، أي لا يُسأل أحد من المجرمين عن ذنبه، لأنهم يُعرفون بسيماهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم.

﴿فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ مع كثرة منافعها، فإن الإخبار بما ذكر مما يزرهم عن الشر، المؤدي إليه.

﴿يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي يُعرفون بسواد الوجوه، وزرقة العيون، وبما يعلوهم من الكآبة والحزن ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي يجمع بين نواصيهم وأقدامهم، في سلسلة من وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة؛ تارة تأخذ بالأقدام، وتارة بالنواصي.

﴿فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كان يكذب بها الأشقياء المجرمون .

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ .

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي بين النار التي يحترقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بلغ النهاية في الحرارة، يُصَبُّ عَلَيْهِمْ، وَيُسْقُونَ مِنْهُ، وَقِيلَ: إِذَا اسْتَغَاثُوا مِنَ النَّارِ، أَغِيثُوا بِالْحَمِيمِ .

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشير إلى كون هذه الأمور من الآلاء .

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ .

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائضة عليهم في الآخرة، أي ولمن خاف قيامه بين يدي ربه جنتان، واعلم أن ما عُدَّ فيما بين هذه الآية، وبين خاتمة السورة الكريمة، من فنون الكرامات، كما هي في أنفسها آلاء جليلة، واصله إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة، لكونها داعية لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدي إلى نيلها، من الإيمان والطاعة، وأن ما فَضِّلَ من فاتحة السورة إلى قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، وبين هذه الآية، من الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة؛ فليست هي من قبيل الآلاء، وإنما الآلاء حكاياتها، الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها، من الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، يوم يقوم الناس لربِّ العباد، وإضافته إلى الرب للتفخيم، وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجنّي، فإن الخطاب للفريقين، أو

لكل واحد جنتان: جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها، وأخرى يُتفضل عليه بها.

﴿ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ .

﴿ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿﴾ صفة لـ «جنتان» وما بينهما اعتراض، والأفنان جمع فَنَن، أي ذواتا أغصان، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، وتمد الظل.

﴿ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴿٤٩﴾ .

﴿ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴿٥١﴾ .

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴿﴾ صفة أخرى لجنتان، أي في كل واحدة منهما عينٌ تجري، كيف يشاء صاحبها، وعن ابن عباس والحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسيل.

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنِكَةٍ زَوَاجَانِ ﴿٥٢﴾ .

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنِكَةٍ زَوَاجَانِ ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: غريب، ومعروف.

﴿ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّةِ ٱلَّذِينَ دَانِ ﴿٥٤﴾ .

﴿ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رِيكَمَا تُكذَّبَانِ ﴾ مُتَّكِئِينَ ﴿﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد،

والاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم، وفراغ القلب، لأن العليل يضطجع، أو يستلقي أو يستند على حسب ما قَدَّرَ عليه، وأما الاتكاء فهو علامة الرفاهية والنعيم ﴿عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ﴾ أي فرش وثيرة بطائنها من ديباج، وهو الحرير السميك، المزين باللؤلؤ، وهذا يدل على نهاية الرفاهية، ومتى كانت بطائنها كذلك، فما ظنك بظاهرها؟ ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم، والقاعد، والمضطجع.

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِرَتْ الظَّرْفُ لَمْ يَطْمِئِنَّ الْإِنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في الجنان والقصور ﴿قَصِرَتْ الظَّرْفُ﴾ أي نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، إنه تعالى لم يذكر النساء، إلا بأوصاف، تارة حور عين، وتارة عرباً أتراباً، وتارة قاصرات الطرف، إشارة إلى تخدرهن، وإعظماً لهن في أعين الرجال ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ الْإِنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يمسن الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن، وفيه دليل على أن الجن يُطمثون، والطمثُ: الجماعُ.

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فِي آيَةِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ * كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ صفة لقاصرات الطرف، أي مشبهات بالياقوت، في حمرة الوجنة، والمرجان، أي صغار الدرّ في بياض البشرة وصفائها، فإن صغار الدرّ أنصع بياضاً من كباره، ولا يبعد أن يقال: هو مؤكدات لما مضى، لأنهن لما كنّ ممنوعات عن الاجتماع بالإنس والجن، فهن كالياقوت في معدنه، والمرجان في صدفه.

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾؟ أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب.

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين، الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان، لمن دونهم من أصحاب اليمين، ولا شك أن مقام السابقين المقربين أعظم وأرفع.

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَتَانِ ﴾ صفة لـ «جنتان» أي خضراوان تضربان إلى السواد، من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتات والرياحين.

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴾ أي فوارتان بالماء، والنضخ أكثر من النضح وهو الرش.

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَكِكَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَكِكَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطف الأخيران لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، وللرمان فاكهة ودواء.

﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ ﴾ في الجنان ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ فضلات الأخلاق، وحسان الخلق والخلق.

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ أي مخدرات، يقال: امرأة مقصورة الطرف، قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة.

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ أي لم يغشهن ولم يجامعن أحد قبل أزواجهن.

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ ﴾ أي مستندين على وسائل خضر من وسائل الجنة، والوسادة هي المخدة ﴿ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ العبقرى منسوب إلى العبقر، وهي الطنافس الثخان، جمع عبقرية، أي طنفسة سميكة مزينة بأنواع النقوش، قال الخليل: كلُّ شيء نفيس يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقرياً يفري فريه» (١).

(١) طرف من حديث رواه البخاري ٣٦٥/١١ ولفظه «بينما أنا نائم رأيتني على قلب - أي بئر - عليها دلؤ، فنزعتُ منها ما شاء الله، فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليرحني، فنزع ذنوبين - أي دَلْوَيْنِ - وفي نزعه ضعف، واللهُ يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذها منه، فلم أر عبقرياً من الناس، يفري فريه، حتى رَوِيَ النَّاسُ، =

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ .

﴿ فَيَأْتِيءَ آيَاتُ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ ﴾ * نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ﴿ تنزيه وتقديس له تعالى ، فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة ، من آياته الفائضة على الأنام ، أي تعالى اسمه الجليل ، وارتفع عما لا يليق بشأنه من العجز والضعف وتضييع أجر العاملين ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء ، والفضل والإكرام لأولياته ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه .

والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن»

* * *

= وَضَرَبُوا بِعَظْمِنَ ۖ أَهْدَىٰ أَيُّ حَتَّىٰ اسْتَقَىٰ النَّاسَ ، وَأَرَوُّوا إِبْلَهُمْ ، والحديث إشارة إلى الفتوحات الإسلامية التي كانت في زمن عمر ، وإلى مدة خلافتها ، فقد قصرت مدة خلافة أبي بكر ، وطالت مدة خلافة عمر ، حتى تيسرت له الفتوح ، وأفاء الله عليه الغنائم ، وكنوز كسرى وقيصر .

obeikandi.com

سُورَةُ الْوَاقِعَاتِ

مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾ .

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي إذا قامت القيامة، وذلك عند النفخة الثانية، والتعبيرُ عنها بالواقعة، للإيدان بتحقيق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، مع قطع النظر عن الوقوع، كأنه قيل حدثت الحادثة، والواقعةُ اسم للقيامة، وانتصاب إذا بمضمر ينيء عن الهول، كأنه قيل: إذا وقعت الواقعة، يكون من الأهوال، ما لا يفني به المقال.

﴿ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ .

﴿ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله، ولا تكذب في نفسها كما تكذب اليوم.

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي هي خافضة لأقوام، رافعةٌ لآخرين، وهو تقرير لعظمتها، وتهويل لأمرها، فإن الوقائع العظام شأنها كذلك.

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ ٤ .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ أي زلزلت زلزلاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء، وجبل، ويندك كل صرح وعمران.

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ ٥ .

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فُتَّتْ حتى صارت مثل السوق الملتوت، أو سبقت وسيّرت، من بسَّ الغنم إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ ٦ .

﴿ فَكَانَتْ ﴾ أي فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَاءً ﴾ أي غباراً ﴿ مُنْبَثًا ﴾ أي منتشراً، متطيراً في الجو.

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ ٧ .

﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ خطاب لجميع الخلائق، السابقين واللاحقين ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثَلَاثَةً ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج، صنفان في الجنة، وصنف في النار، كما وضحته الآية الكريمة.

﴿ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ٨ .

﴿ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ وهم الذين يؤتون صحائف أعمالهم بالإيمان ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ تعجب من حالهم في السعادة، وتعظيم لشأنهم، كأنه قيل: ما هم؟ وأي شيء هم، في حالهم وصفتهم؟.

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ٩

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾؟! والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين، في الفخامة والفضاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، سُمُّوا أصحاب اليمين، لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ ولأنهم يُعطون كتبهم بأيمانهم.

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ ١٠

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، ولعل تأخير ذكرهم، مع كونهم أسبق الأقسام، وأقدمهم في الفضل، ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم، أي والسابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى رحمته، وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.

﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ١١

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى السابقين ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الذين قربت إلى العرش درجاتهم، فهم في ظل العرش وجواره.

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ١٢

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي كائنين في جنات نعيم، يستمتعون بما تشتهيهِ الأنفس.

﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴾ ١٣

﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴾ أي هم جملة من الأولين، وهم الأمم السالفة، من

لدى آدم عليه السلام، إلى نبينا صلوات الله عليهم أجمعين، والثلة: الأمة من الناس الكثيرة.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ (١٤)

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي من هذه الأمة، وقد روي مرفوعاً أن الأولين والآخرين ههنا، متقدمو هذه الأمة ومتأخروهم، وهذا ظاهر لأن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين.

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ (١٥)

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ الموضونة: المنسوجة بالذهب، المشبكة بالدر والياقوت، القوية اللحمية والسدى.

﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ ﴾ (١٦)

﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إن أحداً لا يستدبر أحداً.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ (١٧)

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يدور حولهم للخدمة ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي غلمان، مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم. قيل: هم أولاد أهل الدنيا، وقيل: أولاد الكفار خدام أهل الجنة، والصحيح أنهم ولدان خلقتوا في الجنة، لخدمة أهل الجنة، كالحور العين، والعرب تسمى الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة.

﴿ يَا كُؤُوبٍ وَأَبْرِيْقٍ وَكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (١٨)

﴿ يَا كَوَّابٍ وَأَبَارِقٍ ﴾ سميت إبريق لبريق لونها، وقيل: لأنها يرى باطنها كما يرى ظاهرها ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي خمر جارية من العيون.

﴿ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزِفُونَ ﴾ (١٩).

﴿ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي بسببها، وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ﴿ وَلَا يُنَزِفُونَ ﴾ أي لا يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله.

﴿ وَفَكَهَّةٍ مِّمَّا يَخِخَّرُونَ ﴾ (٢٠).

﴿ وَفَكَهَّةٍ مِّمَّا يَخِخَّرُونَ ﴾ يختارونه ويأخذون خيره وأفضله.

﴿ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٢١).

﴿ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يتمنون ويحبُّون، كما ورد في الحديث «إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخُرُّ بين يديك مشوياً»^(١).

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ (٢٢).

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ أي ويؤتون حوراً جميلات، واسعات العيون.

﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْمَكْنُونِ ﴾ (٢٣).

﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْمَكْنُونِ ﴾ في الصفاء والنقاء الذي لم تُغَيِّرْ لونه الشمسُ والهواء.

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤).

(١) أخرجه البيهقي، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣٠٨/٤.

﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يفعل بهم ذلك كله، جزاءً بأعمالهم، أما الزيادة فلا يدركها أحد.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (٢٥).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي باطلاً ﴿وَلَا تَأْتِيًا﴾ أي لا يأتون ما هو سبب التأثيم، والمعنى: لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً من الكلام، فحياتهم كلها أنسٌ وسرور، ومُتعةٌ ولذة.

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ (٢٦).

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي إلا أن يقولوا ﴿سَلَمًا سَلَمًا﴾ أي أنهم يفشون السلام بينهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧).

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾؟! استفهام للتعظيم لحالهم، وكرامتهم في الجنة.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (٢٨).

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي هم في سدر غير ذي شوك، لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق، كأنه خُضد شوكة أي قطع.

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ (٢٩).

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز، وله أزهار كثيرة، طيبة الرائحة فإن قيل: ما الحكمة، وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، وهو من

أشجار البوادي وله شوكة^(١)؟ أجيب: بأن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً، وله نفع لهم، أو لأنعامهم، والإشارة إلى جميع ما بينهما كما يقال: فلان ملك الشرق والغرب، أي وما بينهما، والأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، وورق السدر في غاية الصغر، وورق الطلح في غاية الكبر، ففي الآية وقعت الإشارة إلى جميع الأشجار، نظراً إلى الأوراق، كما ذكر النخيل والأعناب لشهرتهما عند العرب.

﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ﴾

﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص، ولا يتفاوت الظلُّ، ولا ينقبضُ، لأنه ليس ظل الأشجار، بل ظلٌّ دائم يخلقه الله تعالى.

﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾

﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾ يسكب لهم أينما شاءوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل، يجري على الأرض، كأنه شبه ومثل حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن، ومثل حال أهل اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي، إيذاناً بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفِكَهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾

﴿وَفِكَهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

(١) روى البيهقي والحاكم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟! فقال: وما هي؟ قال: السدرُ، فإن له شوكة!! فقال رسول الله ﷺ: أليس الله يقول ﴿وسدرٍ مخضود﴾؟ خَصَّدَ اللهُ شوكة - أي نزعها وقطعها - فجعل مكان كل شوكة ثمرة، وإنَّ الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر!!».

﴿ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴾ (٣٣)

﴿ لَا مَقْطُوعَةَ ﴾ في وقتٍ من الأوقات، كفواكه الدنيا، بل دائمة مستمرة دون انقطاع ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴾ عن تناولها بوجه من الوجوه، لقربها منهم .

﴿ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (٣٤)

﴿ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رقيقة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، وقيل: الفرش: النساء، حيث يكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونهنَّ على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْضِكِ مُتَكَثِرُونَ ﴾ (١) ويدل عليه قوله تعالى بعده .

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴾ (٣٥)

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴾ أي خلقناهنَّ خلقاً جديداً .

﴿ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ (٣٦)

﴿ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ أي كلما أتاهن أزواجهن، وجدوهن أبكاراً .

﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ (٣٧)

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب، وهي المحببة إلى زوجها، الحسنَةُ التبعل ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السن، بنات ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن، لأنه لا هَرَمَ، ولا شيخوخة في الجنة .

(١) سورة يس، آية: ٥٦ .

﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي جعلناهن نساءً لأصحاب اليمين .

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي هم أمة من الأولين، وأمة من الآخرين، هذا في أصحاب اليمين .

﴿وَأَصْحَابِ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابِ الشِّمَالِ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿وَأَصْحَابِ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابِ الشِّمَالِ﴾؟! الشمال والمشأمة واحد، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، والاستفهام للتهويل والتفطيع، أي وأصحاب الجحيم هل تدري ما هو حالهم .

﴿فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي حرٌّ نارٍ ينفذ في المسامِّ، والسُموم ریح حارة تهب بالنهار فتمرض، أو تقتل .

﴿وِظَلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿وِظَلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ﴾ أي من دخان أسود، وأصله من الحم، وهو الفحم هواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي يشربونه حميم .

﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿لَا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ فيه خير ما، نفِيٌّ لصفتي الظل عنه، يعني أنه ظل حار، وضار، لا نافع، ثم بيَّن تعالى بِمَ استحقوا ذلك العذاب، فقال:

﴿ إِنْتُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ إِنْتُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ أي منعمين ومنهمكين في الشهوات، فلا جرم عذبوا بنقائضها.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي الذنب العظيم، وهو الشرك بالله، لأنه نقض عهد الميثاق.

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۗ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴾ لغاية عتوهم ﴿ أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۗ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾؟ أي هل سنخلق مرة أخرى؟ وهو المرجع للإنكار، وتقييده بالوصف المذكور، وهو تحول أجسادهم إلى التراب والعظام النخرة، لتقوية الإنكار للبعث، بتوجيهه إليه في حالة منافية له بالكلية، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله.

﴿ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾؟ يعنون أن بعث آبائهم الذين بلّوا، أبعد من الوقوع.

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ هو ما وَقَّتَ اللهُ به الدنيا، وهو يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للكفرة ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ أي الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والجزاء.

﴿لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾ (٥٢).

﴿لَا تَكُونُونَ﴾ بعد دخول جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾ من الأولى للابتداء، والثانية للبيان، أي مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم.

﴿فَالثَّوْنُ مِنهَا الْبَطُونُ﴾ (٥٣).

﴿فَالثَّوْنُ مِنهَا الْبَطُونُ﴾ أي بطونكم من شدة الجوع.

﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ (٥٤).

﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ عقيب ذلك ﴿مِن الْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار الذي اشتدت حرارته.

﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ (٥٥).

﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم، وهي الإبل التي بها الهَيْامُ، وهو داءٌ يصيبها فتشرب ولا تزوي، جمع أهيم، والمعنى: أنه يُسَلِّطُ عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم، فإذا ملؤوا منه بطونهم، سَلَّطَ عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم، فيشربون شرب الهيم.

﴿ هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي هذا الذي ذُكِرَ من العذاب هو ضيافتهم، فإذا كان نزلهم ذلك، فما ظنك بما لهم، بعدما استقرَّ لهم القرار في النار؟ وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى، فإن النزل معناه الضيافة، وهل الحميم والزقوم ضيافة فيها تكريم؟ فإن النزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي نحن الذين خلقناكم أيها الناس، وأوجدناكم من العدم، فهلأ تصدقون بالبعث والنشور؟ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾؟ أي ما تقدفون في الأرحام من النطف؟ .

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾؟ أي هل أنتم الذين تخلقونه وتصورونه بشراً سويّاً؟ . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾؟ له من غير دخل شيء فيه، فلم لا تصدقون على أنه يعيدكم؟ .

﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ أي قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين، حسبما تقتضيه مشيئتنا المبتئية على الحكم البالغة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت، أو يغيّر وقته، وإننا قادرون .

﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿ عَلَيَّ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ ﴾ أي أن نذهبكم، ونأتي مكانكم بغيركم، في أسرع حين من الخلق ﴿ وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الخلق والأطوار، يعني إنا نقدر على الأمرين على الخلق ممّا يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ هي خلقهم من نطفة ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أفلا تتذكرون أنّ من قدر عليها، قدر على النشأة الأخرى؟ فإنه أقل صنعا لحصول المراد!! وفيه دليل على صحة القياس .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ ذكر تعالى بعد دليل الخلق، دليل الرزق ﴿ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ أي تبذرون حبه .

﴿ ءَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ ءَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ ۗ ﴾ أي تنبتونه ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ المنبتون .

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ هشيمًا، منكسرًا، متفتتًا، بعد ما أنبتناه ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وتندمون على تعبكم فيه، والتفكُّهُ: التنعم بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتفكهُ بالحديث، فإن قال معاند: نحن نحرت وهو بنفسه يصير زرعًا، لا بفعالنا، ولا بفعل غيرنا، نقول: لو سلّم هذا الباطل، فما تقول في سلامته عن الآفات التي تصيبه قبل ظهور الحبّ؟ أو تدفعونها عنه، أو هذا الزرع يدفع عن نفسه لو أراد الله تلافه وهلاكه؟

﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴾ أي قائلين إننا لملزمون غرامة ما أنفقنا .

﴿ بَلْ لَنَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ بَلْ لَنَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حُرمانا رزقنا، غرمانا ثمن الحب، وحُرمانا من الرزق، فلا حظ ولا نصيب لنا فيه .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾؟ عذبا فراتا، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه، لأن الشرب أهم المقاصد المنوط بها .

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾؟ من السحاب، جمع مُزنة وهي السحابة الممطرة ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾؟ له بقدرتنا .

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحا زعافا لا يمكن شربه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلاً تشكرون ربكم على فضله وإنعامه؟ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر فتخرج منه النار .

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ لها بقدرتنا؟ والتعبير عن خلقها بالإنشاء، المنبىء عن بديع الصنع، المعرب عن كمال القدرة والحكمة، لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر، التي لا تخلو من النار، حتى قيل: في كل شجر نارٌ، واستمجد المرخُ والعُفار.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ (٧٦).

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ أي تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم، وفي الحديث الشريف «ناركم هذه التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»^(١) وقيل: المعنى: جعلناها تبصرةً لأمر البعث، فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي ومنفعة للذين ينزلون القواء، وهو القفر، وتخصيص المسافرين بذلك، لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٧).

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الفاء في ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما عدد من بدائع صنعه تعالى، الموجبة لتسبيحه، عما يقول الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، وتعجبياً من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة، مع جلالة قدرها، أي فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى العظيم، قل: سبحان الله العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته!!.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٣٨/٦ باب صفة النار، ومسلم رقم ٢٨٤٣ باب في شدة حر نار جهنم.

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥)

﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾ أي فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ وهو قول أكثر المفسرين، وأما ما قيل: إن المعنى: فلا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فيأباه تعيين المقسم به، وتفخيم شأن القسم به ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ أي بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصها بالقسم، لما في غروبها من الدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو بمنازلتها ومجاريها، فإن له في ذلك من الدليل على عظيم قدرته، وكمال حكمته، ما لا يحيط به البيان.

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٧٦)

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراضٌ قصد به المبالغة، في تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده.

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٧)

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أي كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، وكريم عند الله تعالى.

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ (٧٨)

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: مصون من التبديل والتحريف، ويراد به المصحف الشريف.

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧٩)

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي القرآن. المراد بالمطهرين الملائكة،

فالمراد بهم المطهرون من الأحداث، فيكون نفيًا بمعنى النهي، أي لا ينبغي أن يمسه إلا من كان على طهارة.

﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ .

﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ صفة للقرآن، أي منزل من عند الرحمن.

﴿ أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ أَفِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ الذي ذكر نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه، وهو القرآن الكريم ﴿ أَنْتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أي متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أي يلين جانبه ولا يتصلب، تهاوناً به.
قال ابن عباس: أي مكذبون، والمدهن والمداهن الكذاب والمنافق، والإدهان: الجري في الباطل، ثم قيل للمكذب: مدهن.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي حظكم ونصيبيكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تضعون التكذيب موضع الشكر.

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ لولا للتحضيض، أي فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم، وتداعت إلى الخروج، عند معالجة سكرات الموت.

﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أيها الحاضرون تنظرون إلى ما هو فيه من الغمرات، وهو يودع الحياة.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٨٥)

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ علماً وقدرة وتصرفاً ﴿ مِنْكُمْ ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيةها، وأسبابها، ولا أن تقدرُوا على دفع أدنى شيء منها، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بملائكة الموت ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي لا تدركون بذلك لجهلكم بشؤوننا.

﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ (٨٦)

﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير مربوبين ومملوكين، من دان السلطان رعيته: إذا سأسهم، والدينُ الجزاء، أي غير مجزيين يوم القيامة، وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨٧)

﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي إن كنتم غير مربوبين ومجزيين، فهلاً ترجعون الروح إلى مقرّها، عند بلوغها الحلقوم؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في اعتقادكم أن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء^(١)! وقال الطبيعي: البقاء بالغذاء، وزوال الأمراض بالدواء، فما بال الطبيعي لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم؟.

(١) الغرض من الآية: بيان عجز البشر عن ردّ الموت، أو دفعه عنهم، وكأن الآية تقول للمكذّبين الكفار: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله يجازي العباد، فهلاً تردّون روح من يعرّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟! وإذا لم يمكنكم ذلك وهو أمر مستحيل، فاعلموا أن الأمر بيد ربّ الأرباب.

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي فأما إن كان المتوفى من السابقين في الخيرات والدرجات، عبر عنهم بأجلّ وأشرف أوصافهم.

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي فله استراحة، وفسر بالرحمة، أي بالحياة الدائمة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي رزق طيب ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي ذات تنعم.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿٩٠﴾ .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ عبّر عنهم بالعنوان السابق، إذ لم يذكر لهم في ما سبق وصف سواه، كما ذكر للفريقين الآخرين.

﴿ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، والالتفات للتشريف، ويحتمل أن يكون المعنى: فسلام لك يا رسول الله منهم، فإنهم في سلامة، لا يهتك أمرهم.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٩٢﴾ .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ وهم أصحاب الشمال، وصفوا به، ذمّاً لهم، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب.

﴿ فَزُلْزِلُ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ﴿٩٣﴾ .

﴿ فَزُلْزِلُ ﴾ أي فله ضياقة كائنة ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ يشرب منها بعد أكل

الزقوم.

﴿ وَتَصَلِيَةً جَمِيمٍ ﴾ (٩٤)

﴿ وَتَصَلِيَةً جَمِيمٍ ﴾ أي إدخالاً في النار المستعرة، وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين، لأنهم غير مكذابين.

﴿ إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ يَقِينٌ ﴾ (٩٥)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿ لَمَوْحٌ يَقِينٌ ﴾ أي حق الخبر اليقين، وذلك نوع تأكيد، يقال: هذا من حق الحق، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٩٦)

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي فنزه ربك عن الظلم والعجز، فهو الذي يجازي العباد بالحق والعدل. روي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لَمَّا نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»^(١) وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً»^(٢)

(١) أخرجه أبو داود ٢٠٠/١ وأحمد في المسند ١٥٥/٤.

(٢) أخرجه ابن عساکر وله قصة لطيفة ذكرها الحافظ ابن كثير ٣٠٢/٤ وهي: أن عبد الله ابن مسعود لَمَّا مرض مَرَضَهُ الَّذِي تُوْفِّي فِيهِ، عادته الخليفة عثمان بن عفان، فسأله: ما تشتكي؟ - يريد ما هو الداء الذي نزل بك - قال: ذنوبي، قال: فما تشتكي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! - وكان عنده خمس بنات - فقال له ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة =

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة».

* * *

= سورة الواقعة، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة، كلَّ ليلة،
لم تصبه فاقة أبداً» اهـ.

obeikandi.com

سُورَةُ الْحَٰدِثِ

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التسييح أسند ههنا إلى غير العقلاء، وأريد به معنى عاماً، شاملاً لما نطقَ به لسانُ المقال، كتسييح الملائكة، والمؤمنين، ولسانُ الحال كتسييح غيرهم، فإن كل فردٍ من أفراد الموجودات، يدلُّ بحدوثه على الصانع القديم، الواجب الوجود، المتصف بالكمال، المنزه عن النقصان، وهو يسَّبِّح بطريقة لا نعلمها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب الحكم في صنعه وتديبره.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي التصرف الكلي فيهما من الموجودات

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿يُجِيءُ وَيُؤْتِي﴾ أي القادر على الإحياء والإماتة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، أي مبالغ في القدرة، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ أي السابق على سائر الموجودات، لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿وَالْآخِرُ﴾ أي الباقي بعد فنائها ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول، لكونه غير مدرك بالحواس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بكل ذرة في الكون، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يعلم سبحانه كل صغيرة وكبيرة، ما يدخل في باطن الأرض من بذور وأمطار، وما يخرج منها من زروع وثمار، وما ينزل من السماء من أرزاق وأقوات، وما يصعد إليها من ملائكة وأعمال ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بالعلم والقدرة^(١)، وبالفضل والرحمة، وهو تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا، وحيثما ساروا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لإحاطة علمه تعالى بأعمالهم.

(١) المراد بالمعينة هنا معية العلم، لا معية الذات، كما نبه عليه الحافظ ابن كثير ٣٤٥/٤ حيث حكى الإجماع على ذلك.

﴿ لَمْ يَلِكْ أَلَمُكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ لَمْ يَلِكْ أَلَمُكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تكرر للتمهيد لقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي إليه وحده لا إلى غيره مرجع حساب الخلائق .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي يدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيطول هذا مرة ويقصر مرة، وهو المدبّر للأكوان ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بمكنوناتها، وبما يضمرونه، العالم بالسرائر والضمائر .

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْفِلِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الخطاب لكفار قريش، أي وحّدوا الله وأطيعوه، وصدّقوا بالله ورسوله ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْفِلِينَ فِيهِ ﴾ أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه، عبّر عما في أيديهم بذلك، تحقيقاً للحق وترغيباً لهم في الإنفاق، فالمنفق في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل، يسهل عليه الإنفاق منه ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي ثواب عظيم هو الجنة .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي أيّ شيء حصل لكم، وأيّ عذر لكم في ترك الأمان؟ ﴿ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ لتوبيخهم على الكفر، أي وأيّ عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم،

بالإيمان من قبل، وذلك بنصب الأدلة على وحدانيته ووجوده!! ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مصدقين بربكم، فهذا أحرى الأوقات لإيمانكم!! .

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾ حسبما يعرض لكم من المصالح، نزل عليه آيات واضحات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم الله من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين، بإرسال الرسل، وتنزيل الآيات .

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١﴾ .

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به، بعد توبيخهم على ترك الإيمان، بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر، أي وأي شيء لكم أن لا تنفقوا فيما هو قرينة إلى الله تعالى؟ ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه، في صرفه إلى مستحقيه؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تأكيد للتوبيخ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر، ومع تحقق ما يوجب الإنفاق، أشد في القبح، وأدخل في الإنكار، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله تعالى؟ وإظهار الاسم الجليل، لزيادة التقرير، وترتبة المهابة ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾^(١) بيان لتفاوت

(١) في الآية حذف تقديره: لا يستوي من أنفق وقاتل قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح، وإنما حذفه للدلالة ما بعده عليه .

درجات المنفقين، حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق، أي لا يتساوى عند الله من أنفق ماله في سبيل الله، وقاتل أعداء الله نصرته لدينه، قبل فتح مكة، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من أنفق قبل الفتح وقاتل ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي أرفع منزلة ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا، قبل عزة الإسلام، وقوة أهله، عند تمام الحاجة إلى النصره بالنفس والمال، وهم السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، الذين قال ﷺ فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١) ﴿وَكَلَّا وَعَدَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي وكل واحد من الفريقين، وعده الله المثوبة الحسنی، وهي الجنة، لا الأولين فقط ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره، فيجازيكم بحسبه.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعْفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى، رجاء أن يعوّضه، فإنه كمن يقرضه؟ وحسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات والإعطاء بطيب نفسه ﴿فَيَضَعْفَهُ لَهُ﴾ أي فيعطيه أجره أضعافاً ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر كريم في نفسه، حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف، فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة؟

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ٢٨/٧ ولفظه: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» أي نصف المدّ. وانظر جامع الأصول ٥٥٣/٨.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ أي تكون أنوارهم ساطعة، ووجوههم مضيئة كإضاءة القمر، حين يمرون على الصراط، وأنوارهم تتلأأ ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم بأيمانهم ﴿بُشِّرَنَّاكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم: بشراكم، أي ما تبشرون به اليوم ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخدلة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ أي انتظرونا، يقولون ذلك، لما أن المؤمنين يُسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تُرف بهم، وهؤلاء مشاة ﴿نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي نستضيء منه ﴿قِيلَ﴾ من جهة المؤمنين تهكماً بهم وسخرية ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي إلى الدنيا ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فالتمسوا النور، بتحصيل مبادئه من الإيمان والعمل الصالح، وإنما قالوه تحقيراً لهم، وتهكماً بهم ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي حائط ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ﴾ أي باطن السور، وهو الجانب الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ﴾ من جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ أي النار.

﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾

﴿يُنَادُوهُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء هذا السور ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا، يريدون موافقتهم لهم في العبادات والغزوات ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كتمت معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ محتموها

بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرْتَضِيَهُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وَأَرْتَبْتُمْ ﴾ في أمر الدين ﴿ وَعَزَّزْتُكُمْ الْأَمَانِيَّ ﴾ الفارغة، من جملتها الطمع في انتكاس أمر الإسلام ﴿ حَقَّقْ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي الموت ﴿ وَعَزَّزْتُكُمْ بِاللَّهِ ﴾ الكريم ﴿ الْغُرُورُ ﴾ أي غركم الشيطان، بأن الله عفو كريم لا يعذبكم.

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْتِيَتْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أي فداء ما يفتدى به ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ولا من الكفار ﴿ مَا أَوْتِيَتْكُمْ النَّارُ ﴾ لا تبرحونها أبداً ﴿ هِيَ مَوْلَانِكُمْ ﴾ أي أولى بكم، لما أسلفتم في الدنيا، وعن ابن عباس: هي مصيركم ﴿ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي النار، قرناؤهم الشياطين، وجيرانهم الكفار، وطعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُوتٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ روي أن المؤمنين كانوا مجدين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق وفتروا عما كانوا عليه فنزلت، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى إلا أربع سنين. والمعنى: ألم يجيء وقت للمؤمنين، أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى، وتطمئن به، ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاة عما نهوا عنه، من غير توان ولا فتور، من أنى الأمر إذا جاء وقته ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أي القرآن، ومعنى الخشوع له: الانقياد التام لأوامره ونواهيها، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ نهي عن مماثلة أهل الكتاب، في قسوة القلوب، فيما

حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا التوراة والإنجيل، خشعوا لله، ورقّت قلوبهم، فطال عليهم الزمان، وزالت عنهم الرقة وقست قلوبهم باتباع الشهوات ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَنَسِئُونَ ﴾ أي خارجون عن حدود دينهم.

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُمِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧).

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُمِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير من القساوة، والمعنى: اعلموا أن الله يحيي الأرض القاحلة المعجدة بالمطر، فكما يحيي الأرض بالمطر، كذلك يحيي القلوب القاسية بالحكمة ونور الإيمان ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ أي وضحنا وفصلنا هذه الآيات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٨).

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ أي المتصدقين والمتصدقات ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعَفُ لَهُمْ ﴾ أي تصدقوا لوجه الله وابتغاء ثوابه، هم الذين يضاعف الله لهم الأجر والثواب، ولهم الجنة دار النعيم جزاء إحسانهم وإخلاصهم.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١٩).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كافة ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿هُمْ﴾ الصَّادِقُونَ ﴿قال مجاهد: كلُّ من آمن فهو صديق، وقرأ هذه الآية، أي أولئك بمنزلة الصديقين﴾ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿أي والذين استشهدوا في سبيل الله﴾ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴿أي لهم مثل أجرهم ونورهم، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿لا يفارقونها أبداً.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُمْصَفًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَعَةٌ الْغُرُورِ﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بعدما بيّن حال الفريقين في الآخرة شرح حال الدنيا، التي اطمأن بها الكفار، من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء، فضلاً عن الاطمئنان بها، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي الحُرَّاتِ، أو الكافرين بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ﴿نَبَأُهُ﴾ أي النبات الحاصل ﴿ثُمَّ يَهِيحُ﴾ أي يجفُّ بعد خضرته ونضرتة ﴿فَتَرَاهُ مُمْصَفًا﴾ بعد ما رأته ناضراً موقناً وإنما لم يقل فيصفراً، إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ هشيماً متكسراً.

وبعدما بيّن حقارة أمر الدنيا، تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها، أشار إلى فخامة شأن الآخرة، وعظم ما فيها من اللذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها، وتحذيراً من عذابها فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار، لأنه من نتائج الانهماك في شهوات الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة للمؤمنين ﴿مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعَ الْعُرُورَ ﴿٢١﴾ أي لمن اطمأن بها، ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة. الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وهي غير مذمومة، لأنه تعالى عَظَّمَ المِنَّةَ بخلق الحياة فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؟ فدل هذا أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرفها إلى طاعة الشيطان فذلك المذموم.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۗ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿سَابِقُوا﴾ أي سارعوا مسارعة المتسابقين في الميدان ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ عظمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كعرضهما، وإذا كان عرضها كذلك، فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه دليل أن الجنة مخلوقة بالفعل، وأن الإيمان شرط لدخولها ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وُعد من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من غير إيجاب ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب، وزلزالٍ وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كمرض، وآفة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إلا مكتوبة، مثبتة في علم الله وفي اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا﴾ أي نخلق المصيبة ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي إثباتها في كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي أخبرناكم بذلك، لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرح المختال الفخور^(١) ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدّر، يفوت ما قدّر فواته، ويأتي ما قدّر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزعه على ما فات، ولا فرحه بما هو آت، والمراد به نفي الأسي المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي لا يحب كل متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله من مالٍ أو جاه.

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ بدل من كل مختال، فإن المختال بالمال يرضُّ به غالباً ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي يُعرض عن أوامر الله، ولم ينته عما نهى عنه، ويبخل عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي فإن الله غنيٌّ عنه، وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، بالتقرب إليه بشيء من نعمه، وفيه تهديد، وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق.

(١) ليس المراد بالنهي عن الحزن والفرح، اللذين لا ينفك عنهما الإنسان، فإنه ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمته شكراً، وإنما المراد الحزن المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فهذا هو الذي نَبَّه إليه القرآن.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الأنبياء إلى الأمم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والمعجزات الساطعات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والمراد بإنزال الميزان: إنزال أسبابه، والأمر بإعداده، وكذا قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وذلك أن أوامره تعالى وقضياه، تنزل من السماء بوحيه وأمره، وبتعليمه وإرشاده، وبذلك تعلّم الإنسان إخراج الحديد وصنعتَه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة، لأن آلات الحروب تتخذ منه ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صناعة إلا والحديد أو ما يُعمل بالحديد آلتها، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً يتعلق به الجزاء ﴿مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح والدبابات، والمدافع، في مجاهدة أعدائه، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي غائباً عنهم وغائبين عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ جيء به تحقيقاً للحق وتبييناً على أن تكليفهم بالجهاد ليس لحاجته في إعلاء كلمته، بل إنما هو لينتفعوا به، ويصلوا إلى الثواب، وإلا فهو غني بقدرته وعزته، في كل ما يريد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ تكرر القسم للاعتناء بالأمر، أي وبالله لقد أرسلناهما، خصّاً بالذكر، لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استبنأناهم، وأوحينا إليهم الكتاب

﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من الذرية ﴿مُهْتَدٍ﴾ إلى الحق، ومؤمن بالكتاب والرسول
 ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ
 الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِنَةٌ أبتدعوها
 مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِنَّ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾
 أي أرسلنا رسولا بعد رسول، حتى انتهى إلى عيسى بن مريم، وأنزلنا عليه
 الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا في قلوب
 أتباعه الرقة والرحمة، للتراحم والتعاطف بينهم، يعني أنهم كانوا متوادين
 متراحمين بعضهم مع بعض، كأصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَرَهَابِنَةٌ أبتدعوها﴾
 أي ورهبانية مبتدعة من عندهم، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة،
 والانقطاع عن الناس، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، والراهب هو
 الخائف، فعلان من رهب، كخشيان من خشى، وسبب ابتداعهم إياها، أن
 الجبارة ظهروا عليهم بعد رفع عيسى عليه السلام، فخافوا أن يفتنوا في
 دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلوب الجبال ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِنَّ﴾ أي لم
 نفرضها عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي ولكنهم ابتدعوها
 ابتغاء رضوان الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من حيث إن النذر عهد
 مع الله لا يحلُّ نكته، لا سيما إذا قصد به رضاء الله تعالى، وأنهم لم
 يراعوها بل ضيعوها وضموا إليها التلث والاتحاد ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 مِنْهُمْ﴾ إيمانا صحيحا، وهو الإيمان برسول الله ﷺ، بعد رعاية رهبانيتهم
 لا مجرد رعايتها، فإنها بعد البعثة لغو محض، وضلال بحث، وأنى لها
 استتباع الأمر؟ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي ما يخص بهم من الأجر ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
 فَسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حد الاتباع والطاعة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي بالرسول المتقدمة ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ أي بمحمد رسول الله ﷺ، وفي إطلاقه إيدان بأنه عَلِمَ فرد في الرسالة، لا يذهب الفهم إلى غيره ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي نصيبين ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ لإيمانكم بالرسول ﷺ، وبمن قبله من الرسل، لكن لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة، بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي مبالغ في الرحمة والمغفرة لكل من تاب وأناب.

﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة الطلبية، التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله، يؤتكم كذا، لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أي ليعلموا، و «لا» مزيدة كما ينبيء عنه قراءة ليعلم ﴿ ءَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي ليعلموا أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضله، أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة، فيخصونها بمن أرادوا، فالنبوة فضل من الله يعطيه من يشاء من خلقه ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ في ملكه وتصرفه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ من عباده ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم، برسول الله ﷺ، يؤتكم ما وعد، من آمن من أهل الكتاب من الكفلين، والله أعلم بأسرار

كتابه^(١)، وصلوات الله وسلامه على خير خلقه محمد، و على آله وصحبه
أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»

* * *

(١) الآية ردُّ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الوحي والرسالة في بني إسرائيل، ولهذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، فردَّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب، والزعم الباطل، وبيَّن أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، حتى يحجبه عن خلقه، وإنما أمر النبوة والرسالة بيد الرحمن وحده، يجعلها فيمن يشاء من عباده ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكفى بهذا خزيّاً للمفتريين من اليهود والنصارى!!